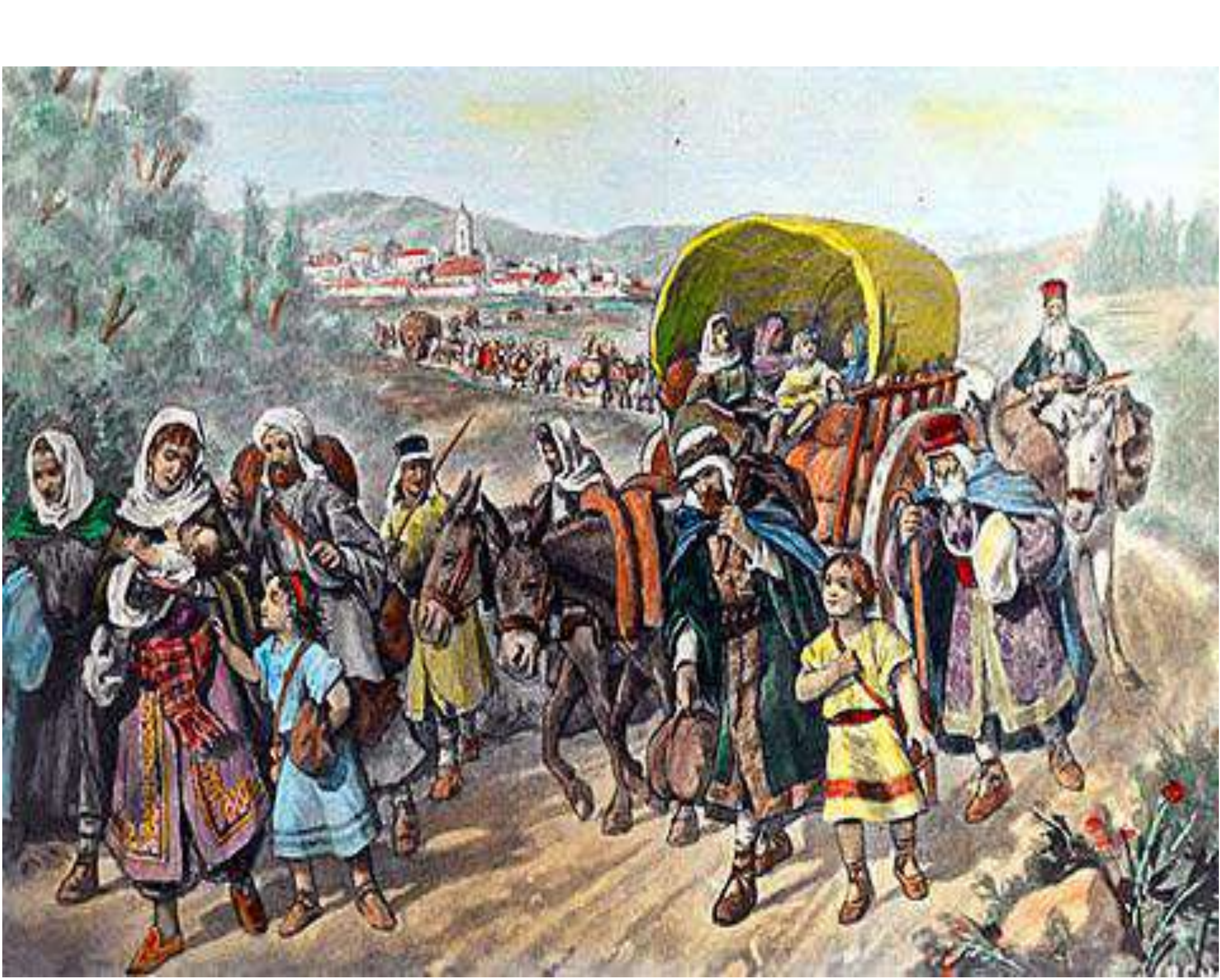
نهايـــة النهايـــة

١ ـ توجس السياسة الاسبانية وعصر الغارات البحـرية الاســلامية

بقلم اللواء الركن
محمود شـيت خطاب
عضو المجمع العلمي سابقا
عضو شرف حاليـا



نهايــــة النهايــــة
١ ـ توجس السياسة الاسبانية وعصر الغارات البحـرية الاسـلامية

بقلم اللواء الركن
محمود شـيت خطاب
عضو المجمع العلمي سابقا
عضو شرف حاليـا

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيض أعزل ، يحاول ان يحتفظ بشخصيته وكرامتـه وحقه في الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التي تريد ان تسحق في بقية الامة المغلوبة كل أثر للحياة الحرة الكريمة ، ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة اخرى ، نذيرا عميق الأثر للسياسة الاسبانية ، ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية يخشى بأسها ، وكان الشعـب المستكين الاعـزل ما يزال رغم ضعفه وذلتـه يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة بارزة في الشؤون الاقتصادية ، وكانت الكنيسة ما تزال تنفث الى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق ايمانه ، وقد وصف المطران جريرو الموريسكيين في سنة (١٥٦٥م) بقوله : (انهـم خضعـوا للتنصير ، ولكنهـم لبثوا كفرة في سرائرهم ، وهم يذهبون الى القداس تفاديا للعقاب ، ويعملون خفية في أيام الاعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيـوم الاحد ، ويستحمون حتى في كانون الثاني ــ ديسمبر ، ويقيمون الصلاة خفية ، ويقدمون اولادهم للتنصير خضوعا للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان اولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم الى الكنيسة في ثياب اوروبية ، فاذا عدن الى المنـزل استبدلنها

بثياب

بثياب عربية ، واحتفل بالـزواج طبقا للرسوم العربية»[1] • وهـذه الاقوال تنطوى على كثير من الصدق ، ذلك ان الامة الموريسكية المهيضة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والارهاق متعلقة بتراثها الروحي القديم • وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهـم مسلمين في سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمـة خفية ، ويكتبون أحكام الاسلام والادعية والمدائح النبوية بالقشتالية الاصلية ، أو بالقشتالية المكتوبة بحروف عربية ، وهي التي تعرف بالالخميادو Aljamiod'o أى (الاعجمية) • وقد وصلت الينا كثـير من الكتب الدينية والادعية والمدائح الاسلامية الموريسكية مكتوبة بالالخميادو ، وكثير منها يدور حـول سيرة النبي العربي عليه الصلاة والسلام ، وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والاساطير المقدسة[2] • بيد انها تدلى بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من اخلاص راسخ لدينها القديم ، وان التبست عليهم أصوله وشعائره بمضي الزمن •

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطـه ضد الموريسكين طـــوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الاسلام بقيت بالرغم من كر الاعوام وتوالى المحن ، دفينة في قلب الشعب المضطهد ، تنضح آثارها من آن لآخر ، يدل على ذلـك ما تسجله محفوظات الديوان ، من ان قضايا الموريسكيين امام محاكم التحقيق ، بلغت في سنة (١٥٩١م) ، (٢٩١) قضية ، وبلغت في العام التالى (١١٧) قضية ، وظهر في حفلة : « الاوتو دا فى » Auto-da-fe التى اقيمت في (٥ ايلول

---

(١) Dr. Lea: The Moriscos; P. 213-214 وكذلك Marmol; Ibid, II Cap. I.

(٢) وضع القس الاسباني Pedro Longts عن حياة الموريسكيين الدينية كتابه Vida Religiosa de los Moriscos (Madrid 1915)
وفيه يورد كثيرا من رسومهم وعوائدهم الدينية ، وكثـيرا من الايات والمدائح النبوية بالقشتالية .

في سبتمبر سنة ١٦٠٤م) ثمانية وستون موريسكيا ، نفذت فيهم الاحكام ، وظهر في حفلة (٧ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٦٠٧م) ثلاثة وثلاثون موريسكيا، واستعمل التعذيب في محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الاتهام يوجه أحيانا الى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ، فقد حدث مثلا في سنتى (١٥٨٩م و ١٥٩٠م) ان سجلت في قرية مسلاته الموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت في قرية كارليت مائتان ، واتهم اربعون اسرة بصوم رمضان . والواقع انه كان من الصعب على من بقيت في نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء . ولم يخمدها تعاقب جيلين او ثلاثة من النصرانية المفروضة ، ان يكونوا دائما بمنجاة من الاتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكي بأسره أينما وجد ، عرضة للاتهام بالحق او الباطل ، واذا كانت ثمة اوقات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالاخص الى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضح لنا قضية بنى عامر زعماء الموريسكيين في بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح . كانت أسرة بنى عامر من أعرق الاسر المسلمة القديمة ، التي أكرهت على التنصير ، وكان زعماؤها اخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمى ، ودون خوان ، ودون هرناندو بني عامر ، ومنزل الاسرة في بنجوازيل (بنى وزير) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات اخـــرى ، محرمـــة على الموريسكيين . ففي (مارس ــ مايو سنة ١٥٦٧م) صدر قـــرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد ان وافقت المحكمـــة العليا (سوبريما) نظرا لخطر مكانتهم ، فاختفى الاخوة الثلاثة حينا ، ولكن الدون كوزمى قدم نفسه للسلطات في (كانون الثاني ــ يناير ١٥٦٨م) ، وقرر في التحقيق انه يعتقد انه نصر طفلا ، ومـــع ذلـــك فانه لا يعتبر نفســـه نصرانيا بل مسلما ، وانه جرى خلال حياتـــه على مراعاة الشعائر الاسلامية ، ولم يذهب الى المعترف الا خضوعـــا للاوامر ، على انه ينبغي ان يكـــون في

المستقبل نصرانيا ، وان يؤدي ما يطلبه المحققون اليه ، ولم يقدم دون كوزمى خلال محاكمته اي دفاع ، ولكنه افرج عنه في (١٥ حزيران – يوليو) بضمان قدره الفى دوقة ، على ان يبقى في بلنسية ولا يبرحها • ومع ذلك سافر دون كوزمى الى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة الاف دوقة ، واستطاع فوق ذلك بنفوذه القوى ، ان يحصل للموريسكيين في بلنسية على قرار التوفيق الصادر في سنة (١٥٧١م) كما قدمنا •

وفي سنة (١٥٧٧م) جددت التهم القديمة ضد بنى عامر ، وقبض على كوزمى وأخيه خوان ، وحوكم كوزمى وشرح عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الاسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الاولى ، ولكن القضية ، أوقفت قبل ان يصل التحقيق الى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بنى عامر بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ استطاعوا ان يحصلوا على براءتهم واطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال[٣] •

وهكذا نرى ان الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذي فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، ان يحتفظوا في قرارة نفوسهم الكليمة ببقية راسخة من تراثهم الروحي القديم •

هذا من ناحية الدين والعقيدة ، أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعا متماسكا متضامنا ، قويا بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم في أواخر القرن السادس عشر وفقا لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر بعضهم الآخر عددهم يومئذ باربعمائة ألف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لسكان اسبانيا في ذلك الوقت ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين • ووصفهم سفير البندقية في سنة (١٥٩٥م) ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد في العدد والثروة ،

---

(٣) Dr Lea : History of the Inquisition V. III. P. 362-365.

وانهم لا يذهبون الى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح • وذكر الكاتب الاسباني الكبير فرڤانتيس[٤] في بعض رسائله ، أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون اولادهم قط في سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون في الانفاق ، ويكتنزون المال ، فهم الآن اغنى الطوائف في اسبانيا • وأما عن الناحية الاقتصادية ، فقد قيل ان الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون واصحاب الفنادق وغيرهم ، ولا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال اموالهم ، وقد كان ذلك من اسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية[٥] •

كانت اسبانيا النصرانية اذاً ، أبعد من ان تطمئن الى مجتمع العرب المتنصرين ، فقد كانوا في نظر الكنيسة أبداً كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جانبها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهي تخشى ان يعود الى الثورة ، وهي تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمي افريقية ومع سلطان الترك ، وهي ما زالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الاخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء الى الابد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا •

والواقع ان صلات الموريسكيين مع اعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الاسبانية • وقد كانت المماليك والامارات المغربية في الضفة الاخرى من اليحر على استعداد دائما لان تصغى الى هذا الشعب المنكود ، سليل اخوانهم الامجاد في الدين ، وان تعاونه كلما سنحت الفرص • وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على اشدها ، في مياه البحر الابيض المتوسط ،

(٤) مجيل ثرفانتس دى ساڤدرا (٤٧ ١–١٦١٦) من اعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو مؤلف قصة الفروسية الشهيرة : دون كيخوتي دى لامانشا .

(٥) Dr Lea : The Moriscos. P. 204, 210

وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية. واكثر من ذلك ان السياسة الاسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على ان تعتبر الموريسيكين خطرا قوميا يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الينا الرواية الاسبانية دلائل هذا الخطر في حوادث كثيرة ، ففى سنة (١٥٧٣م) وقفت السلطات الاسبانية على انباء مفادها ان أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » في مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين في بلنسية ، وقيل بعد ذلك ، ان هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لاراغون ، ينظمها حاكم بيارن الفرنسى ، وان سلطان الترك وسلطان الجزائر كلاهما يؤيدا المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول في مياه برشلونة وفي دانية ، وفيما بين مرسية وبلنسية ، وان الفضل في اخفاق هذا المشروع كله يرجع الى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حينا على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الاسبانية من ان هنري الرابع ملك فرنسا ، كانت له في ذلك مشاريع خطرة ، ترمى الى غزو اسبانيا من ناحية بلنسية، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وان زعماء الموريسكيين وعدوا بأضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، وان يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر ان تقوم الثورة الموريسكية في سنة (١٦٠٥م) ، ولكن المؤامرة اكتشفت في الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التي جمعها « ديوان التحقيق » الاسباني على يد اعوانه وجواسيسه ، تنقصها الادلة التاريخية الحقة[٦] .

---

(٦) Dr. Lea : The Moriscos; P. 281-284 and 286 - 288

على ان الخطر الحقيقي ، كان يتمثل في غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطىء الاسبانية ، وتملأ سير هذه الغارات فراغا كبيرا في الرواية الاسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الانتقام للاندلس الشهيدة . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهرا بعد اخراج العرب المتنصرين من اسبانيا . ويشير المقرى مؤرخ الاندلس الى مغزى هذه الغارات البحرية بعد اخراج الموريسكيين ، فيقول : انهم انتظموا في جيش سلطان المغرب، وسكنوا مدينة سلا ، وكان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الان[7] . ويجب أن نذكر أن مياه البحر الابيض المتوسط شرقه وغربه ، خلال العصور الوسطى كانت دائما مسرحا سهلا للاساطيل الاسلامية . فمنذ ايام الاغالبة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الاساطيل الاسلامية تجوس أواسط البحر الابيض المتوسط وغربيه ، وكانت الدول الاسلامية الاندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة في شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ، بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ، وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية ، وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال « القرصنة » توجد في هذه العصور دائما ، الى جانب نشاط الاساطيل الرسمية . وكان البحر الابيض المتوسط منذ أقدم العصور مسرحا لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر « القراصنة » يومئذ من النصارى ، من الامم التي غزت البحر في عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة وفي أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات في البحر الابيض المتوسط ، واستمر النصارى عصورا زعماء هذه المهنة . ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج . وكانت المغانم الوفيرة من الاتجار في الرقيق ، والبضائع المهربة ، وافتداء الرقيق ، تذكى عزمهم ، وتدفع اليهم بسيل من

---

(٧) نفح الطيب (٦١٧/٢) ، وقد انجز المقرى كتابه سنة ١٦٣٠م .

المغامرين من سائر الامم • ولما ظهرت الاساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر ، ضعف أمر اولئك المغامرين • ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين ، ولكنهم لم يظهروا في هذا الميدان الا منذ القرن الخامس عشر ، حينما ضعف أمر الاندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى ، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية • وكانت الشواطىء المغربية تقدم اليهم المراسى الصالحة • ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على القسطنطينية ، زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر • وكان سقوط غرناطة واضطهاد الاسبان النصارى للمسلمين ايذانا بتطور هذه المغامرات البحرية ، ونزول الاندلسيين والموريسكيين المنفيين الى ميدانها ، واتخاذها مدى حين ، صورة الجهاد والانتقام القومى والدينى ، لما نزل بالامة الاندلسية الشهيدة من ضروب العسف والارهاق[٨] •

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على السواحل الاسبانية ، عقب استيلاء الاسبان على غرناطة ، واكراههم للمسلمين على التنصير • في ذلك الحين غادر الاندلس آلاف من الاندلسيين المجاهدين ، أنفوا العيش في الوطن القديم ، في مهاد الذلة والاضطهاد ، تحت نير الاسبان ، وعبروا البحر الى عدوة المغرب ، وقلوبهم تفيض حقدا ويأسا ، واستقروا في بعض القواعد الساحلية ، مثل وهران والجزائر وبجاية ، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله ، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم ، وظلموا أمتهم ، وانتهكوا حرمة دينهم ، وكان البحر يهيىء لهم هذه الفرصة التي لم تهيؤها لهم الحرب البرية ، وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة ، وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة ، التي تحميها وتحجبها الصخور العالية ، أصلح ملاذ لمشاريع أولئك التجار المجاهدين والقراصنة المغيرين • وكانت الجزائر

(٨) Lane-Poole : The Barbary Corsairs; P. 26 and 27

وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والاقلاع ، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد بالاخص على عنصر المباغتة ، وتنجح في معظم الاحيان في تحقيق غاياتها •

ويصف بيترو مارتيري هذه الغارات بأسهاب ويقول : ان فردنياند الخامس أمر في سنة (١٥٠٧م) للتحوط ضد هذه الغارات ، بأخلاء الساحل الجنوبي من جبل طارق الى ألمرية لمدى فرسخين الى الداخل • ثم صدرت مراسم متعددة تحضر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطىء، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئا ، واستمرت الغارات على حالها • وكان اللوم يلقى في ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولا سيما أهل بلنسية • وكان الموريسكيين كلما اشتد عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة ، اتجهوا الى اخوانهم في المغرب يستصرخونهم للتدخل والانتقام • وكان المجاهدون المغاربة يغيرون بسفنهم على الشواطىء الاسبانية ، ويخطفون النصارى الاسبان ، ويجعلونهم رقيقا يباع في اسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن احوال الشواطىء ومواضع الضعف فيها ، ويمدونها بالاقوات والمؤن • وكانت الحملات تجهز في أحيان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ان تنقل منهم الى الشواطىء الافريقية جماعات كثيرة •

وقد ظهر منذ اوائل القرن السادس عشر الميلادي في الميدان عنصر جديد ، أذكى موجة الغارات البحرية في هذه البحار • ذلك ان البحارة الترك، وعلى رأسهم الاخوان الشهيران أوروج (عروج) وخير الدين[٩] اندفعوا

---

(٩) ويعرف كلاهما في الرواية الاوروبية : بارباروسا (أو ذو اللحية الحمراء ، وقد انتهى الينا عن مغامرات هذين الاخوين الشهيرين وغاراتهما البحرية كتاب بالعربية ، منقول عن اصل تركي ، نشر في الجزائر سنة (١٩٣٤م) بعنوان « غزوات عروج وخيرالدين » . والظاهر انه من تأليف راوية معاصر ، او قريب من العصر .

من شرقي البحر الابيض المتوسط الى غربيه ، في طلب المغامرة والكسب • وفي سنة (١٥١٧م) سار أوروج في قوة برية وبعض السفن الى الجزائر واستولى عليها • ولما قتل في العام التالى في معركة نشبت بينه وبين الاسبان ، استولى أخوه خيرالدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية، وعينه السلطان سليم حاكما على هذه الانحاء ، وأمده بالسفن والجند • وتألق نجم خيرالدين في ذلك الحين ، وأصبح اسمه يقرن بذكر اعظم امراء البحر في ذلك العصر ، وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغودالنه خلفه في الرئاسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسنان اليهودي ، وايدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة • وبسط اولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنبات البحر الابيض المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطىء الايطالية والاسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من المغاربة والموريسكيين • وبدأ خيرالدين غاراته في المياه الاسبانية بمهاجمة الشواطىء الشرقية ، وقطع خلال هذه الغارة ثلاثة اشهر ، عاث فيها في البقاع الساحلية ، وجمع في سفنه كثيرا من الموريسكيين الراغبين في الهجرة، واسر كثيرا من الاسبان • وعرج اثناء عوده على جزيرة منورقة • وكان من اهم الغارات التي نظمها خيرالدين على الشواطىء الاسبانية ، غارة وقعت في سنة (١٥٢٩م) ، وذلك ان جماعة من الموريسكيين في بلنسية فاوضوه لكى ينقلهم خلسة الى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه ، ايدين ريس ، وصالح ريس ، الى المياه الاسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلا عند أوليقا الواقعة شمال غربي دانية أمام مصب نهر « ألتيا » ونزلت منها الى البر قوة استطاعت أن تجمع من الانحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين في الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الاسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار) • ولكن سفن بربروس انقلبت فجأة من الدفاع الى الهجوم ، وأنقضت على السفن الاسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت بعضها الآخر ، وسارت سالمة الى الجزائر

تحمل الموريسكيين الفارين ، وعددا من اكابر الاسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الاسبانيـة الفخمة . وكان صريـخ الموريسكيين يتوالى الى خيرالدين وحلفائه من أمـراء المغرب ، ولا سيما أيام الثورات المحليـة التي تشتد فيها وطأة الاسبان على الامة المغلوبة ، ومن ثم فقد توالت بعوث خيرالدين وغاراته على الشواطىء الاسبانيـة ، وتتابعت الفـرص لـدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة وفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خيرالدين منهم الى شواطىء المغرب نحو سبعين ألفا(١٠) .

وكان سلطان خيرالدين وزملائه البحارة الترك في المياه المغربية ، عاملا في تحطيم كثير من مشاريع اسبانيا البحرية في المغرب . وكان الاسبان قد استولوا على ثغر وهران منذ سنة (١٥٠٥م) ، واحتلوا ميـاه تونس سنة (١٥٣٥م) ، بانضواء أميرها الحفصي المعزول تحت لوائهم ، وكان كثير من أمراء الثغور والقواعد المغربية الذين يهدد الترك سلطانهم يتجهون بأبصارهم الى الاسبان للاحتفاظ برياستهم . ولدينا صور من عدة وثائق موجهة من هؤلاء الامراء الى الامبراطور شرلكان ، يستنصرون به ، ويقطعون العهد على أنفسهم بطاعته ، والانضـواء تحت حمايته ، وهي تدلـى بموضوعها او أسلوبها بما انتهت اليه الجبهة الاسلامية في المغرب في هذا العهد من التخاذل والتفرق المؤلم .

---

(١٠) راجع كتاب الاستاذ لاين بول The Barbary Corsairs في الفصول الاول والثانـي والثالث ، حيث يـورد كثيرا من التفاصيل المهمـة ، عن هـذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروج وخيرالدين ، وراجع كتـاب « غزوات عروج وخيرالديـن في ص (١٩ و٤٨ و٨١ و٨٢) . وخير الدين واخوه مجاهدان لا غبار على جهادهما ، بـذلا جهدهما في الدفـاع عن المستضعفين من المسلمين الاندلسيين ، وانتقما ممن ظلم اولئـك المستضعفين ، وانقذا عشرات الالوف من المسلمين الاندلسيين المضطهدين من براثن ظلم الاسبان النصارى ، فهما مجاهدان بالنسبة لنا ، وقراصنة بالنسبة للمستشرقين وغير المسلمين ، ولا عبرة باتهامهما من اعداء الاسلام بالقرصنة ، ولكن على المسلمين الا ينقاوا اتهام النصارى واعداء المسلمين ويصدقونها .

وفي سنة (١٥٥٩م) قام أمـير البحـر التركي طرغود ، الذي خلف خيرالدين في الرياسة بغارة كبيرة على الشواطىء الاسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفى وخمسمائة موريسكي ، في سنة (١٥٧٠م) استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين في بالميرا ، وفي سنة (١٥٨٤م) سار اسطول من الجزائر الى بلنسية وحمل الفين وثلاثمائة موريسكى • وفي العام التالى ، استطاعت السفن المغيرة ان تحمل جميع سكان مدينة كالوسـا • وبلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية بـين سنتى (١٥٢٨م و ١٥٨٤م) ثلاثا وثلاثين غارة • هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعة من الموريسكيين المهاجرين • وقد وصف لنا الكاتب الاسبانـي الكبير ثرفانتيس هذه الغـارات البحرية المروعة في صور مثيرة شيقة ، ولا غرو فقد كان هو ايضا من ضحاياها ، اذ أسر في الغارات التـي وقعـت سنة (١٥٧٥م) ، وحمـل أسـيرا الى الجزائـر ، ولبث يوسف في اسره بضعة أعوام ، حتى تم أفتداؤه في سنة (١٥٨٠م)[11] •

وكان ممن عمل في البحر مجاهدا في تلك الايام ضد الاسبان ، بعض أكابر الزعماء الموريسكيين المنفيين الذى غدوا من أثر الاضطهاد من ألـد أعداء اسبانيا ، مثل الريس بلانكيو Blanquillo والرئيس أحمد أبو على من أشونية ، ومراد الكبير جواد يانو من مدينة تيوداد ريال (المدينة الملكية) وغيرهم ، وقد أبلى هؤلاء الزعماء الموريسكيون في البحر خير بلاء ، وكانوا خير مرشد لاحكام الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية ، ومضاعفة عصفها وعيثها •

ووقعت في سنة (١٦٠٢م) غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على مدينة لورقة الواقعة غربى قرطاجنة على مقربة من الشاطىء ، وحمل عددا من الاسرى ، وكثرت الغارات في الاعوام التالية على الشاطىء

(11) Dr Lea : History of the Inquisition in Spain; V.III. P. 363

الجنوبى ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار انكليزى مغامر ، يحشد في سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث في الشواطىء الاندلسية ، ويقتنص الاسرى النصارى ، ويبيعهم عبيدا في اسواق المغرب •

وكانت ثغور تونس في ذلك الوقت نفسه ، في أيام حاكمها عثمان داى (سنة ١٠٠٧هـ ــ ١٠١٩هـ = ١٥٩٨م ــ ١٦١٠م) ملاذا لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشاطىء الاسبانى بلا انقطاع• وكان من أشهر أولئك البحارة يومئذ ، عمر محمد باى الذى اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غـارات جريئة على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وكان في كل مرة يعود مثقلا بالغنائـم والسبى • وهكذا لبثت الغـارات البحرية عصرا من الزمان ، تزعج الحكومة الاسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيثها ، بالاخص منذ منتصف القرن السادس عشر ، وكان هذا غريبا في الواقع ، اذ كانت اسبانيا سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الاطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهنـد الغربية ، وتسيطر على ميـاه البحر الابيض المتوسط الغربية ، بيد أنها لم تستطع ان تقمع هذه الغارات البحرية الصغيرة المفاجئة ، التي كان يقوم بها على الاغلب جماعـات مجاهدة ، من رجال البحر المغاربة ، في سفن صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم في ذلك يلقى دائما على الموريسكيين ، ولا سيما سكان الثغور منهم فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيره بالمعلومات ، ويزودونها بالمؤن والعون، ويعينون لها مواقع الرسو والاقلاع ، وقد كانت تأتى على الاغلب لمعاونتهم على الفرار الى ثغور المغرب ، وقد كان الموريسكيون بالرغـم من اضطهادهم والتشدد في مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمى افريقية وأمراء المغـرب جميعـا •

لبثت هذه الغارات البحرية عصرا مشغلا شاغلا للحكـومة الاسبانية لا تجد سبيلا الى قمعها والتخلص من آثارها• وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال الموريسكيين ، عنصرا بارزا في تنظيمها وتوجيهها ، وكانت فكرة

الإنتقام للامة الشهيدة ، تجشم في معظم الاحيان وراء هذه الغارات المجاهدة. ولما تم نفي الموريسكيين من اسبانيا ، زادت هذه الفكرة وضوحا واشتدت وطأة الغارات بما انتظم في صفوف المجاهدين من المنفيين ، وعدت مدينة شلا بالأخص ، مركزا لاولئك المبعدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطىء الاسبانية(١٢) .

ولبث البحارة الترك عصرا ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ، ثم أخذت هذه الغارات تفقد هدفها القديم بمرور الزمن ، وتنقلب الى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطىء الايطالية ، كما تنظم على الشواطىء الاسبانية ، وترمى قبل كل شيء الى تغذية أسواق المغرب والشرق الادنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة، مغامرون من الأفرنج من سائر الامم. وألفى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ اواخر القرن السادس عشر على طرابلس الغرب وتونس والجزائر ، في هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الانزال والاقلاع في ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون الى خزينة الباشا او الداى عشر الغنائم . وأسترق بهذه الطريقة عشرات الالوف من النصارى ، واستمرت بعد ذلك هذه الغارات زمنا طويلا(١٣) .

وحدثت في تلك الآونة التى اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطىء الاسبانية ، في اوائل عهد فيليب الثالث ، في عدوة المغرب احداث أخرى ،

---

(١٢) نفح الطيب (٢/٦١٧) .

(١٣) استمرت تلك الغارات في البحر الابيض المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الاوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة بعضها الاخر والاضرار بتجارتها ومنذ القرن السابع عشر تعمل انكلترا وهولندة وفرنسة على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها وذلك بمهاجمة الشواطيء الغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر ، على انها لم تنقطع نهائيا الا بعد ان غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها (سنة ١٨٣٠م) .

زادت في توجس السياسة الاسبانية ، من مساعى الموريسكيين في استعداء مسلمي افريقية . ذلك ان الحرب الاهلية نشبت في مراكش ، بين السلطان زيدان بن المنصور ، واخيه الشيخ المأمون ، وتعددت المعارك بينهما ، وانتهت بهزيمة الشيخ . وفر الشيخ مع اسرته وأمه الخيزران الى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بتقديم ثغر العرائش الى اسبانيا نظير معاونته . وكان ذلك في اوائل سنة (١٦٠٨م — ١٠١٧هـ)[١٤] . وهنا أرسل الموريسكيون في بلنسية ، رسلهم الى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد ليقدموا له مائتي ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو وفتح أحد الثغور الاسلامية الهامة ، ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده[١٥]. واستجاب فيليب لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض سفنه الى شاطيء المغرب ، واستولى الاسبان على ثغر العرائش ، فأشتد السخط على الشيخ ، وانفض عنه كثير من انصاره ، وما زال الشيخ في مغامراته حتى قتل على مقربة من تطاون (تطوان) سنة (١٠٢٢هـ — ١٦١٣م) ، وانتهى بذلك أمره[١٦] . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته في سنة (١٠٣٧هـ — ١٦٢٧م) أعنى بعد نفى الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاما ، في كفاح دائم مع اسبانيا . وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة في سنة (١٦١٢م) أن غنمت السفن الاسبانية في مياه المغرب ، على شاطىء الاطلنطى فيما بين آسفى وأغادير ، مركبا لمولاى زيدان شحنت بالتحف ، وفيها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والادب والفلسفة[١٧] ، وكان مولاى زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر ملتجئا الى الجنوب ، وحمل معه مكتبته الثمينة وتحفه ، فانتهبها الاسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب الى اسبانيا ، وضمت فيما بعد الى مجموعة الكتب الاندلسية بقصر الاسكوريال[١٨] .

---

(١٤) الاستقصا (١٠٢/٣) . (١٥) Dr. Lea : The Moriscos; P. 289-290

(١٦) الاستقصا (١٠٦/٣) . (١٧) الاستقصا (١٣٠/٣) .

(١٨) نهاية الاندلس (٣٦٢-٣٧٥) .

٢ ـ ماساة النفي

أ ـ تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المتنصرين ، واعتبارهم خطرا قوميا يجب العمل على درئه والتخلص منه ، وكان هذا التوجس يزيد على كر الاعوام ، وتذكيه الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولا سيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات المجاهدين البحرية على الشواطىء الاسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمى افريقية وبلاط القسطنطينية • وسواء أكان هذا الخطر حقيقة يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر في تصويره ، فقد غدت قضية العرب المتنصرين ، غير بعيد في نظر السياسة الاسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها •

وكانت السياسة الاسبانية ، تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطواتها الحاسمة ، في شأن الموريسكيين ، وكان هذا الملك المتعصب نفى الموريسكيين بعد الذى عانته اسبانيا في قمع ثورتهم ، ووضع بالفعل في سنة (١٥٨٢م) مشروعا لنفيهم ، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه • وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الامة الاندلسية الى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضى سوى ذكريات غامضة • وكان التنصير قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا ابناء قريش ومضر بحكم القوة والضغط والارهاب ، نصارى يشهدون القداس في الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ، غير أنهم لبثوا مع ذلك في معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم الى حظيرتها القومية • وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة في بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الاندلسية القديمة ، وكانوا ما يزالون رغم العسف والارهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ،

قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصرا بارزا في انتاج اسبانيا القومي ، ولا سيما في الصناعات والفنون • ولكن السياسة الاسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن أخفقت بوسائلها الهمجية البغيضة في كسب محبتهم وولائهم • وكان ديوان التحقق من جهة اخرى ، ومن ورائه الاحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبدا وصمة في نقاء النصرانية ، ويتصور الاسلام دائما يجرى كالدم في عروقهم •

وقد تضاربت آراء الساسة والاحبار الاسبان ، في شـأن الخطـوة الحاسمة التي يجب اتخاذها، للقضاء على خطر الموريسكيين• ورأى بعض أكابر الاحبار ان خطر الموريسكيين لا يزول الا بالقضاء على الموريسكيين انفسهم• وكان مما اقترحه المطران ريبرا أن يقضى عليهم بالرمة وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل في السفن ومناجم الهند ، حتى يتم افناؤهم بهـذه الطريقة ، وذهب بعضهم الآخر الى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثانـي ، ان يجمـع الموريسكيون ، ويحملوا على السفن ، ثم يغرقوا في عرض البحر[١٩] • واستمرت السياسة الاسبانية حينا من الزمن تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثانى (سنة ١٥٩٨م) وخلفـه ولده فيليب الثالـث • وكان هذا الملك الفتـى ، ضعيف الرأي والارادة، يتأثر كأبيه بنفوذ الاحبار ، ويخضع لنفوذ وزيره وصفيه الدوق ذى ليرما • وكان الدوق من أشد أنصار القضاء على الموريسكيين ، وقـد أشار بها منذ (سنة ١٥٩٩م) ، ووضع لتنفيذها مشروعا ، خلاصتـه : ان الموريسكيين انما هم عرب ، ويجب ان يعدم الشبان والكهول منهم ، ما بين الخامسة عشرة والستين ، او ان يسترقوا ويرسلوا للعمل في السفن ، وتنزع املاكهم • أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ، فينفوا الى المغرب ،

(١٩) Dr. Lea : The Moriscos, P. 296-299

واما الاطفال فيؤخذوا ويربوا في المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سرا لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين في اسبانيا .

وفي سنة (١٦٠١م) ، قدم المطران ربيرا تقريرا الى الملك يقول فيه : ان الدين هو دعامة المملكة الاسبانية ، « ان الموريسكيين لا يعترفون ، ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الاخيرة ، ولا يأكلون لحم الخزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولا يعملون شيئا من الامور التى يعملها النصارى » . ثم يوضح الاسباب التى تدعوا الى عدم الثقة من ولائهم بقوله : « ان هذا المروق العام ، لا يرجع الى مسألة العقيدة ،ولكنه يرجع الى العزم الراسخ العام في أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ، ويعرف المحققون العامون ، أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة ، وتشرح لهم العقيدة في كل مناسبة ، يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لانهم لا يريدون معرفتها ، ولانهم لا يريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى[٢٠] ، ثم يقول المطران في تقرير آخر : ان الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وان كل وسيلة للرفق بهم قد أخفقت ، وان اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، الى اخطار كثيرة ، وتتكبد في رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، واخماد ثوراتهم ، كثيرا من الرجال والمال . ثم يقترح ان تؤلف محكمة سرية من الاحبار ، تقضى بردة الموريسكيين وخيانتهم ، ثم تحكم علنا بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم، وأنه لا ضير على الملك في ذلك ولا حرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ،لان مجلس الدولة ، كان يرى أن يسير في تحقيق غايته سرا ، وألا تصطبغ أجراءاته في ذلك بالصبغة الدينية .

(٢٠) P. Longas, Vide Religiosa de los Moriscos; P. LXVIII

ومضت بضعة اعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب في أواخر سنة (١٦٠٧م) وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاى زيدان ومشاريعه لغزوا اسبانيا ، وعزمهم على الثورة • عندئذ بادر مجلس الدولة بالاجتماع في أواخر (كانون الثانى ــ يناير ١٦٠٨م) ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ، وكرر المطران ربيرا اقتراحه بوجوب نفى الموريسكيين الى المغرب ، وقال : ان النفى أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الاعضاء الآخرون ، وذكروا أن نفى الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لانهم يتكاثرون بسرعة ، بينما يتناقص عدد النصارى القدماء • وبحثت تفاصيل المشروع ووسائله ، وما يجب اتخاذه من التحوطات لضمان تنفيذه ، خصوصا وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب الى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج في سرقسطة وبلنسية • وكانت الخطوة التالية أن عُهد بدرس المشكل كله الى لجنة خاصة على رأسها الدوق ليرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ، وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهرا لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا الى حيث شاءوا فمن جاز منهم الى افريقية منح السفر الامين ، ومن جاز الى أرض نصرانية أوصى به خيرا ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الاسس بذاتها ، ولكن هذه الاسس الرفيقة نوعا ما لم يؤخذ بها •

وفي كانون الثانى ــ يناير من سنة (١٦٠٩م) بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريرا ينصح فيه بوجوب نفى الموريسكيين لاسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، وقيام الادلة على أن الموريسكيين جميعا خونة مارقون ، يستحقون الموت والرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم ، وتكتفى بنفيهم من أراضيها • وتقرر أن ينفذ المشروع كله هذا العام في الخريف منه ، وأرسلت الاوامر

الى حكام صقلية ونابولى وميلان ، بأعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم ، واجتمعت منذ أوائل الصيف في مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط •

وهكذا انتهت السياسة الاسبانية بعد مدة من التردد ، الى اتخاذ خطوتها الحاسمة ، في القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيتها القديمة في « تطهير » اسبانيا نهائيا من آثار الاسلام وآثار العرب ، ومحو تلك الصفحة الاخيرة لشعب عظيم تالد •

ب ـ وفي (٢٢ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) أعلن قرار (مرسوم) النفى النهائى للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، فساد بينهم الروع والاضطراب ، واليك نص هذا القرار الشهير في صحف المآسى والاستشهاد:

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، واحقاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأي الملك من نفيهم جميعا الى بلاد البربر (المغرب) • وبناء على ذلك فانه يجب على جميع الموريسكيين من الجنسين أن يرحلوا مع اولادهم في ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى الى الثغور التى يعينها لهم مأمور والحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ، وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم الى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة باطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنهم يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الايام الثلاثة في أماكنهم رهن اشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الاعدام في حالة المقاومة • وقد منح الملك السادة كل الاملاك العقارية والامتعة الشخصية التى لم تحمل ، فاذا عمد أحد الى اخفاء الامتعة أو دفنها ، أو أضرم النار في المنازل أو المحاصيل،

عوقب جميع سكان الناحية بالموت • ونص القرار على ابقاء ستة في المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم في صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر ، ومحصول الارز ، وتنظيم الرى ، وارشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة من بين الاسر الاكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية • أما الاطفال ، فأذا كانوا دون الرابعة ، فأنه يسمح لهم بالبقاء اذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم واولياؤهم ، واذا كانوا دون السادسة سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء (أعنى من غير العرب المتنصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لامهم الموريسكية ، فاذا كان الاب موريسكيا والام نصرانية أصيلة ، نفى الاب وبقى الاولاد دون السادسة مع أمهم • كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » ، اذا زكاهم القسس • وحظر القرار اخفاء الهاربين أو حمايتهم• ويعاقب المخالف بالاشغال الشاقة لمدة ستة أعوام • كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، ان يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم • وأخيرا نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكى يشرحوا لاخوانهم كيف تم النقل الى المغرب على أحسن حال •

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقوع الصاعقة ، ونهكت قواهم ، وسادهم الوجوم والذهول • وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، اذ انهارت معنوياتهم ، ونضبت مواردهم • وكانت الحكومة الاسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء ، وحشدت قواتها في جميع الانحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم في بلنسية ، فقروا أنه لا أمل لهم في المقاومة ، وأنه لا مناص لهم من الخضوع ، واستقر الرأى على أن يرحلوا جميعا ، وألا يبقى منهم أحد ، ولا حتى نسبة الستة بالمائة التى سمح ببقائها ، وأن من بقى منهم اعتبر مرتدا مارقا ، ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ،

وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة في المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت في الانحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخمدت حركاتهم بسرعة ، وقتل منهم عدد كبير •

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفى ، وقالوا : انهم اعتنقوا النصرانية طوعا قبل التنصير الاجبارى ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شىء فصدر الامر الى الاساقفة ببحث ظلامتهم ، وأن يسمح بالقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والاخلاص •

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين ، فقد هرعت الى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا في بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الاسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والاثاث وغيرها، لتباع بأبخس الاثمان • وبدىء بتنفيذ قرار النفى في الجهات التي نشر فيها أولا ، وهى أعمال بلنسية ، وذلك منذ اوائل (تشرين الاول — اكتوبر سنة ١٦٠٩م) ، وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس حملوا الى ثغر وهران في الضفة الاخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الاسبان ، ثم نقلوا الى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهنالك استظلوا بحماية السلطان • وعاد بعضهم الى اسبانيا ، ليروى عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا في أمن وسلام • ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، في سفن غير التى عينتها الحكومة الاسبانية ، لنقل المهاجرين واطعامهم دون أجر ، واضطرت الحكومة نتيجة لذلك أن تستدعى عددا كبيراً من السفن الحرة ، الى مياه بلنسية • ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفا ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ، ورحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسقى ونشيد الاغانى ، وهم يشكرون

(٢١) Dr. Lea. History of the Inquisition in Spain; Vol. III, P. 399

الله على العود الى أرض الآبـاء والاجداد ، ولما سئل فقيـه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب : بأنهم كثـيرا ما سعـوا الى شراء قارب أو سرقتـه للفرار الى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف اذا عرضت لنا فرصة السفر الامين مجانا ، لا ننتهزها للعود الى أرض الاجـداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهناك نعيش احرار مسـلمين ، لا عبيدا كما كنا ؟

وكانت الجنود تحرس المنفيين في معظم الاحوال ، حماية لهم من جشع النصارى الاسبان الذين انتظموا في عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحيانا . وفضلا عن ذلك فان تنفيذ قرار النفى لم يجـر دائما في يسـر وسهولة ، فقد أبى كثير من الموريسكيين في الجبل الخضوع للاوامر لعدم ثقتهم بولاء الحكومة ، وفضلوا المقاومة حتى الموت ، واحتشدوا بالاخص في « وادى أجوار » ، حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفا ، وفي مويلادى كورتيس حيث اجتمع منهم تسعة آلاف ، فبادرت الحكومة الى محاصرتهم ، وفتكت بالموريسكيين العزل ، وقتلت منهم بضعة آلاف ، ومات كثير منهم من الجوع والبرد . واخيرا سلّم من بقى منهم ، وحملوا قسرا الى ميناء السفر ، وسبى الجند منهم كثيرا من النساء والاطفال ، باعوهم رقيقا . ولم يصل منهم الى شواطىء المغرب سوى القليل . وفي مويلادي كورتيس لم يبق منهم عند الابحار سوى ثلاثة آلاف ، ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة ، وتبث الاضطراب نحو عام ، حتى قضى عليها بعد جهد جهيد[٢٢] .

وصدر قرار النفى في قشتالة في (١٥ أيلول ــ سبتمبر سنة ١٦٠٩م) . ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولا في بلنسية ، ولم ينفذ بالفعل الا في اواخر (كانون الاول ــ ديسمبر) ، ومنح الموريسكيون فيه شهرا للسفر ، بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفى في الاندلس ، وسافر منهم شمالا الى حدود

(٢٢) Dr. Lea : History of theInquisition in Spain; V.III, P. 397-398

فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة ، وسافر الى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر الى الاراضى النصرانية ، وذلك لكى يحتفظوا بأولادهم الصغار ، ولكن تسرب الكثير منهم الى الثغور المغربية •

وبلغ عـدد المنفيين في الثلاثـة أشهر الاولى زهاء مائة وخمسين ألفـاً ، وسافر منهم ألوف كثيرة من الاغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة ، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين في أراغون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفا ، الى ولاية ناقار الفرنسية ، ودخـل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفـا ، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الكارون ، بشرط بقائهم على دين الكثلكة ، وأن تهيء السفن لمن أراد السفر منهم الى شواطىء المغـرب •

أما في غرناطة وأنحاء الاندلس ، فقد أعلن قرار النفى في (١٢ كانون الثانى ـ يناير سنة ١٦١٠م) بعد أن عدلت بعض أحكامه ، وفيـه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوما ، ويباح لهم بيع سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها ، على أن يقتنى بها عروض او بضائع اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، الا ما يكفى نفقات الرحلـة بالبر والبحر ، وأما الاملاك العقارية ، فتصادر لجهة العرش • وقد استقبل الموريسكيون في الاندلس قرار النفى بالاستبشار والرضى ، ويقدر مـن نزح منهم الى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزح معظمهم الى مراكش •

ثم توالى اعلان قرارات النفى في جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، في سائر انحاء المملكة الاسبانية : في قطلونية ، وأراغون في (أيار ـ مايو ـ ١٦١٠) ثم في اشبيليـة وإسترمادورة ، ثم في مرسية وغيرهـا وتأخر تنفيذه في مرسية نحو اربعة أعـوام حتى (كانـون الثاني ـ ينايـر ١٦١٤م) ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفـا ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال الى الثغور الجنوبية •

واتجهت بعض الجهات الى الثغور الايطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت الى مصر والشام والقسطنطينية[٢٣] . وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم في أرض فرنسا من الاعتداء والنهب ، فأرسل الى ملكتها (وهي يومئذ ماري دى مريتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحتج على هذا الايذاء ، ويطلب حماية المنفيين[٢٤] . وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا الى المشرق بعض طوائف من يهود الاندلس ، ولا سيما طائفة « الحسريم »، التي ما زالت تقيم حتى اليوم في القسطنطينية ، ويقيم بعضها في مصر .

ونفذت قرارات النفى في كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهورا بل أعواما ، تحمل أكداسا من الكتل البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا وهناك . في مختلف الثغور الافريقية في جو من المناظر المروعة المفجعة .

وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقا لقرار النفي ، فيقول ناڤاريتي وهو من اعظم مؤرخي اسبانيا : انه قد نفى من اسبانيا في مختلف الاوقات ، نحو مليوني يهودى وثلاثة ملايين موريسكى . ويقدر آخرون عدد المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ « ديوان التحقيق » بمليون نسمة . ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف نسمة . وفي الرواية العربية الموريسكية ، يقدر عدد الموريسكيين المنفيين بستمائة ألف . ونحن نميل الى أن عددهم لا يمكن ان يتجاوز هذا

---

(٢٣) نفح الطيب (٢/٦١٧) .

(٢٤) Dr. Lea : The Moriscos; P. 364

القدر ، وقد كان مجموعهم في أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا • ويقدر عدد من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفى بنحو مائة الف[٢٥] •

وقد عاد معظم الموريسكيين الذين نفوا الى افريقية والمشرق ، الى الاسلام دين الآباء والاجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير القسري ، والارهاق المستمر ، جذوة الاسلام في نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا في أعماق سرائرهم •

وبذلك ينتهى الفصل الاخير من مأساة الموريسكيين ، وتطوى الى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات •

ج ـ وتقدم لنا الرواية الغربية، تفاصيل اضافية عن مأساة الموريسكيين، من بدايتها الى نهايتها ، وتخصها بكثير من النقد والتعليق • ولكن الرواية الاسلامية مقلة حول ذلك ، شأنها في تاريخ الاندلس منذ سقوط غرناطة ، فهى لا تعنى بتتبع مصير العرب المتنصرين ، كما تعنى الرواية الغربية بها ، ولا تقدم لنا عن مأساة النفي سوى بعض الشذور والأشارات الموجزة •

وأهم وأوفى ما وقفنا عليه من ذلك ، رواية معاصرة عن احوال الموريسكيين ، ومساعيهم السرية للمحافظة على دينهم ، وظروف نفيهم ، كتبها موريسكي عاش في جيّان في اواخر عهد الموريسكيين ، ثم هاجر الى تونس قبيل النفي بقليل ، وكتب فيما بعد هذه الرسالة دفاعا عن الموريسكيين المهاجرين وشرف نسبهم ، وتوكيداً لحسن اسلامهم وتمسكهم بالاسلام ، ووردت خلالها حقائق تاريخية هامة ، عن النفي وأسبابه وملابساته ، ننقل منها ما يلي :

قد كثر الانكار علينا معشر اشراف الاندلس ، من كثير من اخواننا في الله ، بهذه الديار الافريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله ، بقولهم : من

---

(٢٥) Dr. Lea : The Moriscos; P. 259

اين لهم هذا الشرف . وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولهم مئون من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الاسلام ، وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، الى غير ذلك من الكلام ...

مع أني صغير السن ، حين دخولنا هذه الديار ، عمرّها الله تعالى بالاسلام وأهله ، فقد اطلعني الله تعالى على دين الاسلام بواسطة والدي ، رحمه الله عليه ، وأنا ابن ستة اعوام وأقل ، مع اني كنت إذ ذاك اروح الى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع الى بيتي فيعلمني والدي دين الاسلام ، فكنت أتعلم فيهما معا ، وسني حين حملت الى مكتبهم اربعة اعوام . فأخذ والدي لوحاً من عود الجوز ، فكتب لي فيه حروف الهجاء ، وهو يسألني حرفاً حرفاً عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فأذا سميت له حرفاً اعجمياً كتب لي حرفاً عربيا ، فيقول حينئذ : هكذا حروفنا ، حتى استوفى جميع حروف الهجاء في كرتين ، فلما فرغ من الكرّة الاولى ، اوصاني ان أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي ، وجميع قرابتنا ، وأمرني الا اخبر احدا من الخلق ..

وقد كان والدي رحمه الله يلقنني حينئذ ما كنت اقوله حين رؤيتي للاصنام ... فلما تحقق والدي انني اكتم امور دين الاسلام عن الاقارب فضلا عن الاجانب ، أمرني بأفشائه لوالدتي وعمتي ، وبعض اصحابه الاصدقاء فقط ، وكانوا يأتون الى بيتنا فيتحدثون في امر الدين ، وأنا أسمع .

فلما رأى حزمي مع صغر سنيّ ، فرح غاية الفرح ، وعرّفني بأصدقائه وأحبائه واخوانه في دين الاسلام ، فاجتمعت بهم ، وسافرت الاسفار لاجتمع بالمسلمين الأخيار ، من جيان مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة والى قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله تعالى للإسلام ، فتلخص لي من معرفتهم اني ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثونني بأمور غرناطة وما كان بها في الإسلام حينئذ ، فباجتماعي بهم حصل لي خير كثير ، وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله للاسلام ، يقال

له : الفقيه اللوطوري ، رحمه الله وتعالى ونفعنا به ، فكأنه كان رجلا صالحا ، ولياً لله فاضلا ورعاً ، زاهدا ، قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الاسلام بغرناطة ، قبل استيلاء اعداء الله عليها ، وهو ابن ثمانية اعوام • ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من ايدي المسلمين اجدادنا ، وقد اذن العدو في ركوب البحر لمن اراده ، وبيع ما عنده ، وإتيانه لهذه الديار الاسلامية ، وذلك في مدة ثلاثة اعوام ؛ ومن اراد ان يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، والزامات كتبها عدو الدين على أهل الاسلام • فلما تحرك لذلك اجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم واموالهم ، ومفارقة اوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز الى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز اليها حينئذ ، ودخلوا في زقاق الاندلس المعروف الان بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنتين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم ، لذلك نقض العهد ، فردهم رغم انوفهم من سواحل البحر الى ديارهم ، ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق بأخوانهم وقرابتهم بديار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئاً ، ويفعل بهم شيئاً آخر ،مع ان المسلمين اجدادنا استجدوا مرارا ملوك الاسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من احدهما الا بعض مراسلات ، ليقضي الله امرا كان مفعولا •

ثم بقى العدو يحتال عليهم بالكفر غصبا ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الاسلامي ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الاسلامية شيئا فشيئا ، مع شدة امتناعهم والقيام عليهم مرار ، وقتالهم اياه ، الى ان قضى الله سبحانه ما قد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالناس من لاحت عليه امارة الاسلام ، ويعذبه بانواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيّعوا من مسلم ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة والنف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهرا دين الكفار ابعدهم الله ، فخرج بعض احبابنا واخواننا وهو الفقيه الاجل محمد ابو العباس احمد

الحنني ، المعروف بعبدالعزيز القرشي ، ومعه احد اخواله ، الى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان احمد بن السلطان محمد آل عثمان نصرهم الله تعالىوأيدهم ، فأخبراه بما حل بأخواننا بالاندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب امرا لصاحب فرانسة دمرها الله ، بأعلام السلطان يأمره بأن يخرج مَن كان عنده من المسلمين بالاندلس ، ويوجههم اليه في سفن من عنده ، مع ما يحتاجون اليه • فلما قرىء الامر السلطاني في ديوان الفرنسيس ، فسمعه مَن كان مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده يخبره بالواقع ، وأن السلطان احمد آل عثمان ، ارسل أمره الى فرانسا ، وأمر صاحبها ان يخرج مَن كان عنده من الاندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بأخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الاندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه، ويبلغهم الى حيث شاءوا من بلاد المسلمين • فلما احس بهذا الامر عدو الله فيليبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع اكابر القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطاب منهم الرأي ، وما يكون العمل عليه في شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ، فبد الشأن في أهل بلنسية ، فأخذ الرأي ، واجمعوا كلهم على اخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب اوامر وشروطاً في شأنهم ، وفي كيفية اخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الاندلس ، نعم اريد ان أذكر لك نبذة يسيرة ختصرتها ، وترجمتها ، من جملة اسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله في أوامره ، التي كتبها في شأن اخواننا الاندلسيين حين اخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من امرهم ، وتعلم بعض الاسباب التي اخرجوا لاجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين •

قال الملك الكافر ، ابعده الله وزلزله آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لاخراج من يكدّر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، في مملكتها التي تعيش عيشا رغدا صالحا ، والتجربة اظهرت لنا عيانا ، ان

الاندلسيين الذين هم متولدون من الذين كدّروا مملكتنا فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم اكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين اظهرهم، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم اعضاءهم ، وتعذيبهم اياهم بأنواع العذاب ، الذي لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم ، لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عيانا أن كثيرا منهم قد أُحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا ، وظهر لي ان بينهم وبينه مراسلات اسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت ذلك من اخبارات صادقة وصلت اليّ ، ومع هذا ان احدا منهم لم يأت الينا ليخبرنا بما هم يدبرونه هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ، علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأي واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ، وظهر لي ايضا ، ولارباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الامر واستشرت ، مع ان من ابقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد بسلطتنا ، وان بأخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشىء من ابقائهم بمملكتي ، اردت اخراجهم من سلطتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع ، والمتوقع للنصارى ، الذين هم رعيتنا ، طائعين لاوامرنا ودينا ، ورميتهم الى بلاد المسلمين امثالهم ، لكونهم مسلمين.

فانظر رحمك الله ، كيف شهد عدو الدين ، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون واعترف أنه لم يقدر على ازالة دينهم من قلوبهم ، وانهم متمسكون كلهم به ، مع انه كان يحرق منهم مَن ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرويته فيهم لوائح المسلمين وأماراتهم ، فأي علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن استنجادهم بملك دين الاسلام المؤيد لحماية الدين ، امير المسلمين السلطان احمد آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الاندلسية .

فخرجوا كلهم سنة تسعة عشر (كذا) والف . ووجد في دفاتر السلطان الكافر، ابعده الله تعالى، أن جملة مَن اخرج من أهل الاندلس كافة، نيف وستمائة الف نسمة، كبيرا وصغيرا . فكانت هذه الواقعة منقبة عظيمة، وفضيلة عجيبة لجماعتنا الاندلسيين زادهم الله شرفا عنه، وامر ايضا بأخراج مَن كان مسجونا في كافة مملكته، وكل مَن كان أمر بأحراقه فأخرجه، وعفا عنه، وزوده وارسله الى بلاد الاسلام سالما، فيالها من اعجوبة ما اعظمها، ومن فضيلة ما اشرفها، ومن كرامة ما اجملها، ومن نعمة ما اكبرها، فما سمع من اول الدنيا الى آخرها مثل هذه الواقعة[٢٦] .

وقد صدر قرار النفي — كما قدمنا — في ٢٢ أيلول — سبتمبر سنة ١٦٠٩م) وهو يوافق جمادى الثانية سنة (١٠١٨هـ)، ولكن الرواية الاسلامية تضع تاريخ القرار احيانا سنة (١٠١٦هـ او ١٠١٧هـ) وهو تحريف واضح .

قال المقري، وهو مؤرخ الاندلس، وقد كان معاصرا للمأساة : « الى أن كان اخراج النصارى اياهم (أي العرب المتنصرين) بهذا العصر القريب اعوام سبعة عشر والف . فخرجت الوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الاعراب ومَن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا اموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس . ونجا القليل من هذه المعرة . واما الذين خرجوا بنواحي تونس، فسلم اكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى جيشا جرارا وسكنوا سلا،

---

(٢٦) كاتب هذه الرسالة، هو النسابة محمد بن عبدالرفيع الاندلسي المتوفى سنة (١٠٥٢هـ — ١٦٥٢م)، اى بعد نفي الموريسكيين باثنين واربعين عاما، وقد وردت في آخر كتابه المسمى : « الانوار النبوية في آباء خير البرية »، وهو لا يزال مخطوطا . وقد نقل الرسالة المذكورة الشاعر ابو عبدالله محمد بوجندار في كتابه المسمى : « مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح » (الرباط ١٣٤٥هـ)، والرسالة منقولة عن هذا الكتاب مع بعض التصرف (ص٢٠٠ — ٢١٤) .

كان منهم من الجهاد في البحر ، ماهو مشهور الان . وحصنوا قلعة سـلا ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الان بهذه الحال ، ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى ، والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت »[٢٧] .

وقال ابن دينار التونسي ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاما في اخبار سنة (١٠١٧هـ) : « وفي هذه السنة والتي تلتها ، جاءت الاندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانيا ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرّق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم ان يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير ، وبنوا فيها ، واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا في عدة اماكن ، وعمروا نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من اهل البلاد »[٢٨] .

وقال صاحب الخلاصة النقية ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفي سنة ست عشرة والف ، قدمت الامم الجالية من جزيرة الاندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم اهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم ، وقلدوا ترفهم »[٢٩] .

وهذه النصوص الموجزة ، هي كل ما تقدم الينا الرواية الاسلامية عن نفي العرب المتنصرين ، وقد لبثت رواية المقري عن المأساة ، مصدرا لكل ما كتبه الكتاب المتأخرون[٣٠] . وربما كان هذا النقص راجعا الى أنه لم يعن احد من كتّاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن

---

(٢٧) نفح الطيب (٦١٧/٢) .
(٢٨) المؤنس في اخبار افريقية وتونس (تونس) ص(١٩٣) .
(٢٩) الخلاصة النقية (تونس) ص (٩١) .
(٣٠) انظر الاستقصا (١٠١/٣) ، حيث تنقل هذه النصوص .

المأساة ، أو لعله قد ضاع ما كتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، وأنه كتب عن المراحل الاخيرة لتاريخ الاندلس والعرب المتنصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقري سوى لمحات يسيرة •

وهكذا بذلت اسبانيا النصرانية كل ما وسعت لاخراج البقية الباقية من فلول الامة الاندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين الا اتخذتها ، ومع ذلك فأن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفي بصورة نهائية • فقد رأينا ان كثيرا من المنفيين قد عادوا الى اسبانيا ، فرارا مما لقوا في رحيلهم من ضروب الاعتداء المفزع ، وأسلموا انفسهم رقيقا يقتنى • كذلك كانت ثمة جماعات من الاسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون في المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقا في اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير • ومع انه صدر قرار يحظر وجودهم في العاصمة الاسبانية ، فأنه كان من الصعب اخراجهم من المملكة ، نظرا لما ترتب لاصحابهم عليهم من الحقوق • وكان بعضهم يفلح في ابتياع حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سرا، وأخيرا توجّست الحكومة الاسبانية من وجودهم ، فصدر في سنة (١٧١٢م) قرار بنفيهم ، خلال المدد التي يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم الى افريقية •

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، ان يبقى في البلاد احد من الموريسكيين او سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم او اشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب • وكان من المتعذر أن يفلت احد منهم من بطش ديوان التحقيق • وكان الديوان المقدس ابدا على اهبة لضبط أية قضية ضد موريسكي مختف او عبد متنصر ، ولكن هذه القضايا كانت نادرة ، مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضي الزمن بيد أن اسرى المعارك الحربية بحرا الذين كانوا يُكرهون على التنصير ، كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكان معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا الى الاسلام ، وخرجوا الى الجهاد في البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر الميلادي ، يجد بينهم

فرائس من آن لآخر • وعلى الجملة ، فأن آثار الموريسكيين والاسلام لم تعف نهائيا من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الاسر والافراد الموريسكيين الذين اندمجوا في المجتمع الاسباني ، على صلاتهم الخفية بالماضي البعيد ، وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر امام محاكم التحقيق بعض القضايا الخاصة بالموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الاسلام خفية ، وضبط في سنة (١٧٦٩م) مسجد صغير في قرطاجنة ، أنشأه المتنصرون المحدثون ، مما يدل على انه كانت ما تزال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والاسلام •

ولا تقدم لنا محفوظات ديوان التحقيق منذ اواخر القرن الثامن عشر ، أي ذكر للموريسكيين ، او الاسلام والمسلمين ، مما يدل على ان الاثار الاخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت ، وأسبل عليها الزمن عفاءه الى الابد[٣١] •

على أن ما يقال أخيرا ، أنه مازالت ثمة الى اليوم ، في بلنسية وفي غرناطة ومقاطعة لامنشا ، جماعات من الأسبان ، تغلب عليهم تقاليد الموريسكيين في اللباس والعادات ، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة[٣٢] •

والحقيقة انه يصعب على الباحث ، أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية ، قد استطاعت حقا بكل ما لجأت اليه ، من الوسائل المغرقة في الظلم ، ان تقضي نهائياً ، على آثار السلالة العربية والحضارة الاسلامية ، بعد ان لبثت ثمانية قرون تغمر النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ، فأن تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل ان تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصا اذا لبثت آمادا مختلفة متداخلة ، على ان حضارة امة من الامم انما هي خلاصة لتفاعل الاجيال المتعاقبة • وفي وسع مؤرخ الحضارة ان يلمس في تكوين المجتمع الاسباني

(٣١) Dr Lea : The Moriscos; P. 391-392

(٣٢) Dr Lea : Ibid. P. 395

الحاضر ، ولاسيما في الجنوب ، في ولايات الاندلس القديمة ، وفي خصائصه وتقاليده ، وفي حياته الاجتماعية ، وفي حضارته على العموم ، كثيرا من الخلال والظواهر ، التي ترجع في روحها الى تراث العرب والحضارة الاسلامية[٣٣].

تاملات في آثار المأساة الاندلسية

تلك هي قصة الموريسكيين او العرب المتنصرين : قصة مؤسية تفيض بألوان الاستشهاد المحزن والصبر الجميل ، ولكن تفيض في نفس الوقت بصحف من الأباء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التي اتبعتها اسبانيا النصرانية ، واتبعها ديوان التحقيق الاسباني ، ازاء العرب المتنصرين ، على كر العصور ، مثار الانكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والاسبان منهم انفسهم ، حتى يومنا هذا ، بأقسى النعوت والاحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على ابادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ، ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منذ نفي الموريسكيين ، من اوج عظمتها التي سطعت في عصر شارلكان وفيليب الثاني ، الى غمرة التدهور والانحلال ، التي مازالت تلازمها حتى هذه الايام .

بل ترجع عوامل هذا الانحلال ، الى ما قبل مأساة الموريسكيين بنعيد ، او بعبارة اخرى الى السياسة التي أتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الامة الاندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والتوسع والاستيلاء ، في القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد والولايات الاسلامية الزاهرة ، تسقط تباعا في يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تفقد في نفس الوقت اهميتها العمرانية

---

(٣٣) نهاية الاندلس (٣٧٦–٣٩٢) .

والاقتصادية ، اذ كانت العناصر الاسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها الى القواعد الاسلامية الباقية ، فراراً من عسف النصارى ، وتغادرها حاملة اموالها وفنونها وصنائعها . تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادي . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين ، حتى سقطت غرناطة ، واحتشدت البقية الباقية من الامة الاندلسية في المنطقة الجنوبية ، وفي بعض القواعد الاندلسية القديمة ، مثل بلنسية ومرسية ، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده ، جموع غفيرة من المسلمين الى افريقية ، واستحالت الامة الاندلسية غير بعيد ، الى شعب مهيض ممزق ، هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومع ذلك ، فقد لبثت هذه الاقلية الاندلسية المضطهدة، عاملا خطيرا في اقتصاد اسبانيا القومي ، وفي ازدهار زراعتها وتجارتها وفنونها وصناعاتها ، وكان الموريسكيون يحملون كثيرا من تراث الامة المغلوبة ، والى نشاطهم ودأبهم يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التي يملكها السادة الاقطاعيون فلما اشتد بهم الاضطهاد والعسف ، وأخذت يد الابادة تعمل لتمزيق طوائفهم، وسحق نشاطهم ، وقتل مواهبهم ، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية اخيرا خطوتها الحاسمة بأخراجهم ، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الانتاج الزراعي الذي برع الموريسكيون فيه ، وخرجت الضياع الكبيرة بفقد الايادي الماهرة ، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من انشط عناصرها وركدت ريح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التالدة التي كانوا اساتذتها وغاضت الفنون الرفيعة التي استأثروا بها منذ أيام الدولة الاسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضي الزمن نتائجها المخربة ، فتناقص عدد السكان ، وانكمشت المدن الكبيرة ، وذوى العمران ، وتضاءلت موارد الخزينة العامة ، وشلت يد الاصلاح والتقدم ، ولم يمض على اخراج الموريسكيين زهاء قرن، حتى أصبح تعداد سكان المملكة الاسبانية كلها ستة ملايين نسمة ، وكان سكان قشتالة وحدها ايام سقوط غرناطة سبعة ملايين نسمة ، وفقدت معظم

المدن الكبرى ، مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة اربعة اخماس سكانها ، وعمّ الفقر والخراب مئات المناطق والمدن ، وخيّم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال •

وقد ظهرت هذه الآثار المخرّبة ، بالاخص في محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور ايراد الضياع الكبيرة ، وايراد الكنائس والاديار ، دليلا على ما اصاب قوة اسبانيا المنتجة : الزراعية والصناعية ، بسبب نفي طائفة كبيرة من انشط طوائف السكان واغزرهم انتاجا • وكان من الحقائق المعروفة ان السكان الاسبان كانوا يبغضون الاعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها امرا شائنا ، وان الاسباني لا يربي اولاده لمزاولة العمل الشريف ، وان اولئك الذين لا يجدون لهم عملا في الجيش او الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة • ويبدي المؤرخ الاسباني الكبير ناقاريتي أسفه لوجود اربعة الاف مدرسة في عصره (اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر) يتعلم فيها ابناء الفلاحين بينما تهجر الحقول ، ولان اولئك الذين لا يجدون منهم عملا في الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول او التشرد او السرقة • وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر الى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الاسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحتقرون العمل اليدوي ، حتى أن ما يمكن عمله في البلاد الاخرى في شهر ، يعمله الاسبان في أربعة أشهر(٣٤) •

ويردد الوزير محمد بن عبدالوهاب الغساني سفير سلطان المغرب مولاي اسماعيل الى اسبانيا ، وقد زارها في سنة (١٦٩١م) ، اعني بعد النفي بثمانين عاما ، عن الاسبان مثل هذا الرأي ، اذ يقول في رحلته : « وبحصول هذه البلاد (الهندية) ــ يقصد امريكا ــ ومنفعتها وكثرة الاموال الي تجلب منها صار هذا الجنس الاسبنولى اليوم اكثر النصارى نالا ، واقواهم مدخولا ، الا ان الترف والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد احدا من هذا الجنس يتاجر

(٣٤) Dr. Lea : The Moriscos; P. 379-381

أو يسافر للبلدان يقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والانكليز والفرنسيس والجنوبين وأمثالهم ، كذلك الحرفة التي يتداولها السقطة والرعاع واراذل القوم ، يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الاجناس المسيحيين »[٣٥] •

وقد كان النبلاء والاحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون في تعهد اراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم فلما وقع النفي جمد النشاط الزراعي ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ، ولاسيما عن منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء الى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنية وقطلونية ، ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ في غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الاراضي التي نزعت ، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ، وحاق بهم الضيق ، حتى اضطر العرش الى منح كثير منهم نفقات سنوية من خاصة امواله ، هذا فضلا عما اصاب طوائف السكان الاخرى ، التي كانت تتصل بالموريسكيين في المعاملات والتبادل من العسر والضيق •

وكما انحط دخل الكنائس والاديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيرا من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة اموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة ان تعول كثيرا من محاكم التحقيق التي اوشكت على الأفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التي كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء اموالها • وقد بيعت اموال الموريسكيين واراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن العرش استولى عليها ، ووزع معظمها على اصفيائه من الوزراء والنبلاء والاحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى الجزء اليسير منها •

---

(٣٥) رحلة الوزير الغساني ، المسماة : « رحلة الوزير في افتكاك الاسير » ـ (العرائش ١٩٤٠) ص (٤٤ ـ ٤٥) •

ويقدمون مثلا لما اصاب اسبانيا من الخراب تتيجة « للنفي » هو مثـل مدينة : ثيوداد ريال (المدينة الملكية)[٣٦] عاصمة لامنشا ، فقد أسس هـذه المدينة الفونسو العالم في القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطا حـرة مغرية ، شجعت كثيرا من يهود ومسلمين على النزوح اليها • وفي سنة ١٢٩٠م كان دافعوا الضرائب فيهـا من يهـود (٨٨٢٨) ، فلما اخرج يهود منها في سنة (١٤٩٢م) ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما اُخرج منها هؤلاء مع المدجّنين القدماء ، خرجت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها ، وخرجـت صناعة النسيج التي انشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانهـا في سنة (١٦٢١م) الى (٥٠٦٠) نسمة والى نحو الف أسرة فقط ، في حين انها كانـت تضم من السكان قبل « النفي » اثنتى عشرة ألف أسرة[٣٧] •

وكان مما ترتب على نفي الموريسكيين ايضا ، ذيوع العملة الفضـية الزائفة ، وقد تركوا منها وراءهم مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعـة خاصة • وأحدث ذيوع النقد الزائف اضطرابا شديدا في المعاملات ، وحاولـت الحكومة جمعه والعقوبة عليه وعلى ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الاعدام ولكنها لم تفلح في استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة اعواما طويلـة ، وعمد الاسبان بدورهم الى التزييف ، وعوقب كثير منهم امام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيرا من الضرر والارهاق •

ولم تمض أعوام قليلة على نفي الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الاثـار المخرّبة كلها في حياة المجتمع الاسباني بصورة مزعجـة ، وهـال العـرش والحكومة ما اصاب الامـة من ضروب البـؤس والخراب ، وطلـب رئيس الحكومة الدوق دي ليرما في سنة (١٦١٨م) الى مجلس الدولة ان ينظـر في هذا الامر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ، وقدم مجلس الدولة تقريره بعـد

(٣٦) Cidad Real.

(٣٧) Dr. Lea : The Morioscos, P. 372-384

عام ، وأشير فيه الى خراب المدن والقرى ، ولكن لم يشر الى نفي الموريسكيين والى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة وبغض الشعب للعمل الشريف ، بل حاول ان يرجع الشر الى فداحة الضرائب ، والى الترف الذي تعيش فيه الطبقات الممتازة ، واسراف الملك في الاغداق على اصفيائه ؛ وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالامر ، وقدم عنه تقريرا الى الملك ، ومع ان التقارير الحكومية التي وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر الى نفي الموريسكيين كعامل اساس فيما اصاب اسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان في القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة ، ففي سنة (١٦٢٢م) اصدر الملك فيليب الرابع، قرارا بخفض الضرائب على بلنسية ، اشار فيه الى هجرة السكان ، والى ما خسرته المدينة من ضروب الدخل ، التي كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون ، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم .

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئا في تخفيف هذه الضائقة، التي طافت بالمجتمع الاسباني ، وشملت سائر الطبقات سواء الانتاج او الاستهلاك ، ومضى وقت طويل قبل ان تستقر الاحوال نوعا ما ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التي أصابتها .

يقول الدكتور لي : « انّه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، في القيام بقسط عظيم من الانتاج والتنظيمات المالية في البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون ان يبث ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركا من المشاكل يمتد اثرها الى اجيال مرهقة » . ثم ينعى على السياسة الاسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول : « وانه لمن خواص السياسة الاسبانية في ذلك العصر ، أنه لم يفكر احد في هذه الشؤون ، ولم يحتط أحد في المباحثات الطويلة التي جرت في قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التي ينفذ بها النفي ، وماذا

يسمح به للمنفيين ، وماذا يكون مصير الاطفال • ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح اخفاق السياسة الاسبانية »[٣٨] •

وجوابا على هذا التساؤل ، فأن الذي حجب التفكير السليم عن الذين بيدهم الامر في اسبانيا يومئذ ، وهم رجال الدين والنبلاء المقربون للملك ، الذين هم صانعوا القرار ، هو امران : التعصب الاعمى المتسم بالجهل المطبق، والمتمثل في كزه الاسلام والمسلمين • ومحاولة القضاء عليهم قضاءا مبرما • والثاني ، هو حرص اولئك الزمرة على اموال الموريسكيين المنقولة وغير المنقولة ، ورغبتهم الجامحة في اغتصابها لأنفسهم في غطاء من القرارات الملكية، دفاعا عن حاضر اسبانيا ومستقبلها ظاهريا ، واقتناصا للمكاسب المادية لانفسهم واقعيا ، حتى ولو ادى جشعهم الى الاضرار ببلدهم عامة ، ورخاء الفرد الاسباني خاصة • ولم يكن نشاط الموريسكيين مجهولا على النطاقين الحكومي والشعبي في اسبانيا ، فنشاطهم واضح معروف لا يخفى على احد ، وقد مر بنا ان قسما من النبلاء فاتحوا الملك في محاذير نفي الموريسكيين على الزراعة في اسبانيا ، فلم يفلحوا في توسطهم ، ويبدو ان هؤلاء النبلاء كانوا من الاقطاعيين الذين يستفيدون من مهارة الموريسكيين الفذة في الزراعة ، وتوقعوا ان مزارعهم سيتسرب اليها الخراب بعد نفي الموريسكيين ، وهذا ما حدث فعلا ، وعلى نفسها جنت براقش التي أعماها التعصب والجشع ، فقد كان صانعوا القرار الاسباني يومئذ متعصبين اولا ومنتفعين ثانيا ، فخرب تعصبهم بلادهم ، وانتفعوا بعددهم المحدود ، وأضروا الشعب بأسره ، وعلى رأسهم صفوته الموريسكيون بلا مراء •

تلك هي النتائج المادية الواضحة ، الاقتصادية والاجتماعية ، التي جنتها إسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لأبادة الأمة الأندلسية • فقد لبثت

---

(٣٨) Dr. Lea : The Moriscos; P.387

إسبانيا زهاء قرن تعمل بأقسى وسائل الأرهاق والمطاردة على استصفاء ما بقي من فلول الامة الاندلسية ، في الارض التي بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والامن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول الى شراذم معذبة مهيضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها، ان تبقى عليها ، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت في سبيل اسطورة من التعصب والجهالة ، ان تقضي عليها بالتشريد والنفي النهائي ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من افضل العناصر العاملة • وكان من سوء طالع اسبانيا ان جاء نفي الموريسكيين ، في وقت اخذت فيه عظمة اسبانيا ورخؤها ينحدران سراعا الى الحضيض ، وجنح المجتمع الاسباني الى حياة الدعة والخمول ، وأخذ سكانها في التدهور ، فجاء نفي الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التي أخذت في التفكك والذبول، وتركت وراءها جرحا عميقا لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة • ومن ثم فأنه من الواضح ان يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفي الموريسكيين ، ويعتبره عاملا بعيد المدى فيما اصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والانحلال •

ب — على أن التفكير الاسباني يختلف في هذا الرأي وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالاخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، واكبر العاملين على تنفيذها • وقد استقبل رجال الدين نفي الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الديني ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا ، وهو مؤرخ من مؤرخي القرن الماضي ، في كتابه الذي نشره دفاعا عن هذه الاجراءات : « بأن عصر اسبانيا الذهبي ، بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وانقذت من مشاغلها الداخلية ، وان النفي كان اعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية »[٣٩] • ويقول حبر آخر : « لقد زعم الموريسكيون ان رخاء

---

(٣٩) Bleda . Difensio f.dei in Causa Neophg orum a.ve Morischorum in Hispanios.

اسبانيا قد ذهب مذ اكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم وازدهرت التجارة ، وساد الامن في الداخل والخارج »[٤٠] . ويقول الحبر ڤنتي دي لافونتي في تاريخه الديني : انه من السخرية ان يقال : ان نفي الموريسكيين كان سببا في انحطاط اسبانيا ، فأن أمة قد تفقد مائة وخمسين الفا في وباء او حرب أهلية . ثم يتساءل في تهكم : لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟! على أنه يعترف مع ذلك بأن النفي كان سببا في تدهور دخول الاشراف والكنائس[٤١] . ويرى آخرون من الاحبار ، أن اسبانيا قد دفعت بالنفي ثمنا باهظا،ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون : أن وفرةالرخاء، تذهب بالفضائل ، وانه لا بأس من التقشف مع الايمان ، وان الفقراء استطاعوا بعد اجلاء الموريسكيين ان يجدوا اعمالا[٤٢] .

ولكن خبرا ومؤرخا اسبانيا كبيرا ، هو دون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ، ونفي الموريسكيين في قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكي روع الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدي اليه معاملتهم بشيء من الانسانية ، يزدادون مقتا لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة . وكان هذا سبب الاضطرابات التي ادت في سنة (١٦٠٩م) الى نفي هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهي خسارة فادحة لاسبانيا تضاف الى خسائرها الفادحة ، ففي مائة وتسع وثلاثين سنة ، انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، مابين يهود ، ومسلمين ، وموريسكيين»[٤٣] .

ويقول الكاردينال ريشليو الفرنسي ، وهو من اعظم احبار الكنيسة في مذكراته ، وكان معاصرا للمأساة : « أنها أشد ما سجلت صحف الانسانية جرأة ووحشية » .

---

(٤٠) Dr Lea : The Moriscos; P. 366 .

(٤١) Dr Lea : Ibid, P. 394-396 .

(٤٢) Dr. Lea : Ibid, P. 367

(٤٣) L'orente : Historia Critica de la Inqvisicion de Espana (1815 - 1817).

هذا عن الاحبار ، أما عن آراء البحث الاسباني الحديث ، فانها تختلف في تقدير آثار نفي الموريسكيين اختلافا بينا ، بيد انها تميل على الاغلب الى الاعتراف بفداحة الاثار المخربة التي اصابت اسبانيا من جرائه ، والى اعتباره عاملا قويا في تدهور اسبانيا وانحلالها . بيد انها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفي ، ويرى بعضهم أنه كان اجراء طبيعيا ، وضرورة لا محيص عنها ، وينكر بعضهم الآخر أنه كان كارثة او أنه ترتب عليه آثار مخربة ، ونورد هنا طائفة من آراء عدد من أكابر المؤرخين والمفكرين الاسبان المحدثين ، بدقة وافاضة تسمحان بفهم الروح الاسبانية ازاء هذا الحدث التاريخي الخطير ، وتقديرها على حقيقتها .

ويقول دانفيلا اي كوليادو : « وهكذا تحقق نفي الموريسكيين الاسبان ، بغض النظر عن كونهم شبانا او شيوخا ، صالحين او عقماء ، مذنبين او أبرياء . وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل في ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية ، وضع خطتها الملكان الكاثوليكيان ، وحاول تحقيقها الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثاني ، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها . اما فيليب الثالث ، فكان يزاول سلطانه على يد أصفيائه ، ولذا ألفى سلطة العرش الدينية والسياسية ، أيسر وأهون ، وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الاندلسي ، وقد ألفت عواطف الروح الرقيقة نفسها ، وجها لوجه أمام المسألة السياسية . ودخلت الانسانية والدين في صراع ، وخرج الدين ظافرا وفقدت اسبانيا أنشط أبنائها ، وانتزع الابناء من حجور أمهاتهم وحنان آبائهم ، ولم يلق الموريسكي أية رأفة أو رحمة . ولكن الوحدة الدينية بدت ساطعة رائعة في سماء اسبانيا ، واغتبطت الامة اذ أضحت واحدة في جميع مشاعرها العظيمة .

وكان الموريسكيون شديدي المراس ، وكان الوطن ينشد وحدة معنوية ، تغدو متممة للوحدة السياسية ، التى تحققت باندماج سائر العروش

في شبه الجزيرة ، وكان عنصر تناقض قوي ، كالذي تمثله طائفة الموريسكيين ، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها ، ولكنه كان استحالة مطلقة ، تحول دون تحقيق الغاية ، التى تتجه اليها الحركة العامة للفكر القومى ، وكانت الصعوبة كلها تجثم في الدين ، ولم تكن اللغة التى كانت تبدو خاصة قومية أخرى ، تكون يومئذ أو في أى وقت عقبة بمثل هذه الخطورة ، ففى شمال اسبانيا ، وفي شرقها ، توجد اللهجات المختلفة ، من الجاليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها • وكذلك يوجد مثل هذا التباين في النظم القضائية ، والثياب والعادات الخاصة بكل منطقة ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء في سبيل وحدة الدين ، والروح القومى ، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة التى خلقها الدين بالنسبة للموريسكيين ، والتى جعلتهم دائما في حالة دائمة من التربص والتوجس • ان ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى ، لاخضاع الموريسكيين للنصرانية ، مما لا يمكن وصفه ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثا ، ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع ، لبث الموريسكيون في عهد فيليب الثالث ، يضطرمون بنفس الروح المتمردة ، التى كانت لاسلافهم الذين أخضعوا بالسيف وقد ارتضوا حالتهم كمحنة مؤقتة عابرة ، ولم ينبذوا الامل قط ، ولم يتركوا قط الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الاخذ بالثأر ، واسترداد استقلالهم وسيادتهم » • ثم يقول : «وانها لخرافة أن يقال : ان الموريسكيين كانوا عنصرا مفيدا في انتاج اسبانيا ، ولوا أنهم كانوا كذلك ، لحملوا الرخاء الى بلد المغرب حيث ذهبوا »[٤٤] •

---

(٤٤) M. Danvila Collado : La Expulu'sionde Los Moriscos Espanoles (Madrid 1889) P. 320-322.

ويقول المؤرخ الكبير موديستو لافونتى ، وسنرى أنه يذهب في الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة الى أبعد حد :

« وعلى أي حال ، فان مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين، قد جردت اسبانيا ــ وقد كانت يومئذ جدّ مقفرة من السكان ، بسبب الادارة السيئة والحروب المستمرة ــ من طائفة كبيرة من السكان ، أو بعبارة اخرى من السكان الزراعيين والتجاريين والصناعيين ، من السكان المنتجين ، أولئك الذين يساهمون بأكبر قسط في الضرائب • وكان أقل ما في ذلك تسرب الملايين من الدوقيات ، التي حملتها الطائفة المنفية معها ، في الوقت الذى كانت فيه المملكة تعانى من قلة النقد ، فكان نقص الذهب الفجائى على هذا النحو أشد وطأة عليها • كذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد المزيف أو المنقوص ، الذى روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم • وأسوأ ما في ذلك كله ، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الذكى المتمرس في الفنون النافعة • وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان لهم بأنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش في الري بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعا مناسبا ، كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ، ثم تابعوا بنسج الاصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهي صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة ، وانتهوا بمزالة الحرف الآلية ، وهى حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريسكين واختصوا بها • وقد عانى كل شيء من نقص في السواعد وفي البراعة :وهو نقص جعلت المفاجات من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظا بطيئا صعبا •

« يقول نفس المؤرخ البلنسي الذي شهد النفي ، وكتب عقب اتمامه ، أنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهى حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت الى قفر جاف موحش • وحدث هنالك كما حدث في قشتالة ، وفي باقى البلاد ،

أن بدا شبح الجوع الداهم ، وبالرغم من أنه قد جيء بسكان جدد الى الاماكن التي هجرها الموريسكيون لكي يتدربوا على العمل في الحقول والمصانع والمعامل ، الى جانب اولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلا ريب) • على ان مثل هذا التمرن لم يؤت نتائجه السريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التى ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذى استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص في البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته • وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش في الاماكن المهجورة • واذا كان ثمة بعض السادة الاقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الامر ببعضهم أن طلبوا نفقات للطعام • أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلا شك هم الدوق دى ليرما وأسرته ، وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين •

« ومن ثم فقد اعتبر نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية بالنسبة الى اسبانيا ، أفدح اجراء مخرب يمكن تصوره وانه ليمكن ان نغض الطرف عن المبالغة التى دفعت بأحد الساسة الاجانب ، وهو الكاردينال ريشليو ، أن يسميه : (أعرق اجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في اى عصر سابق) ، والحق أن الصدع الذى أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول : انه لم يبرأ حتى عصرنا •

« فأما من الناحية الدينية ، فقد كان هذا الاجراء ثمرة الافكار التى سادت في اسبانيا قبل ذلك بقرون ، وثمرة البغض التقليدى المتأصل ، الذى يكنه الشعب لغالبيه وأعدائه الالداء القدماء • وليس مما يمكن انكاره ، أنه كان مويدا لفكرة الوحدة الدينية ، التى دأب على العمل لتحقيقها واكمالها الملوك الاسبان والشعب الاسبانى • بيد أنا لا نعتقد أنه كان من البراعة

(ما عدا اعتباره صراعا مقررا هو من خصائص العصور الوسطى) أن نصل الى الوحدة الدينية بطريق افناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى • وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين ، بالتعاليم والاقناع ، والحزم ، والرفق ، وتفوق الحضارة •

« وأما كونه اجراء سياسيا ، قصد به الى تحقيق سلامة الدولة وسلامها ، فقد كان ممكنا أن نسوغ اتخاذه لو كانت المؤامرة حقيقية وخطيرة، وكانت الخطط شنيعة ، وكانت الوسائل قوية ، والخطر داهما ، وذلك كما افترض الوزير المقرب والاسقف ربيرا والنصحاء والآخرون • أجل لم يك ثمة شك في أنه كانت هناك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لاسبانيا ، بين بعض الموريسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك ، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين • بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ما كان يصورها أنصار النفي ، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين في بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن • كما أنه لم يكن ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين في أراغون وفي مرسية ، مثلما زعمت الوفود التى أتت من هذين الاقليمين ، وكذلك لم يكن الموريسكيون في قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه • وعلى أى حال ، فأنه متى ذكرنا، أننا بعد مضى أكثر من قرن على قهر الموريسكيين واخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم ومزجهم بالاسبان والنصارى ، لم نوفق الى تأليفهم في العادات والعقائد ، أو أن ندمج بقية الامة المغلوبة في الكتلة الكبرى للامة الغالبة ، ولم نوفق الى جعلهم نصارى واسبانيين ، ثم لجأنا بلا ضرورة الى وسيلة افناء جيل برمته ، متى ذكرنا ذلك ، فأنا لا نستطيع أن ننظر بعطف الى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ، ولا الى حزمهم أو سياستهم »(٤٥) •

---

(٤٥) Modesto Lavente : Historia General de Espana (Madrid 1862) T. VIII. P. 211-214

ويقول فلورثيو خانير ، وهو يحذو حذو لافونتي في تقديـره وتعليله ، وينقل بعض أقواله : « ومع ذلك ، فانه لمصلحة الدين ، والسلام الداخلى ، وسلامة الدولة ، قد وقع الاعضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريسكيون على الصناعة والتجارة والزراعة ، بل وعلى ثروة الامة الاسبانية كلها ، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث ، آلاف من الصنّاع الموريسكيين، يحملون معهم بذور الحضارة والحرث . وقد قال كامبومانس الشهير : « ان بدء تدهور صناعاتنا يرجع الى سنة (١٦٠٩م) حينما بدىء بنفى الموريسكيين. فمن ذلك الحين ، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الامة المتواليـة ، وعبثا يحاول ساستنا أن ينسبوا بؤس القرن السابع عشر ، الى أسباب أخـرى ، فهى وان كانت جزئية ، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة ، وهى ضربة لم تستطع الامة حتى اليوم أن تنهض من عثارها » ... « ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية في الاسبان أثرين سيئين : الاول : أنهم اعتبروا هذه المهن من الامور الشائنة . والثانى : أنهم لم يتعلموا شيئا منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها . وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان للموريسكيين فيها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش في الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعا مناسبا ، كان له أثره في الانتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبة .

« ثم تابعوا بنسج الاصواف والحرائر ، وصنع الورق والجـلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريسكيون أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الآلية ، وهى حرف كان الاسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها، ومن ثم فقد كان الموريسكيون يحتكرونها ، وقد وقع من جراء ذلك نقص في الايدى وفي المهارة كان من المستحيل ملؤها في الحال ، ثم غدا بعد ذلك ملؤها مبهظا بطيئا صعبا . وقد بلغ النقص في الانفس ، ونقا للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث ، على الاقل نحو مليون . ثم يأتى بعد ذلك نقص

العملة الذهبية ، بسبب الكميات الكبيرة التى حملوها معهم من الدوقيات ، واخيرا يأتى ذيوع النقد الزائف أو ناقص الوزن ، وهو الذى ملئوا به المملكة قبل نزوحهم منها ، على أن الضرر الفادح الذى لم يعوض لسنين بعيدة ، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة •

« ومن ثم ففى وسعنا أن نقول عن بلادنا بحق : ان بلاد العـــرب السعيدة ، قد استحالت الى بلد العرب الفقراء ، وعن بلنسية بوجه خاص ، ان حديقة اسبانيا الغناء قد استحالت الى صحراء جافة مشوهة • وقد حل شبح الجوع بالاختصار في كل مكان ، وحـل محـل المرح الصاخب للقرى العامرة ، الصمت الموحش في الامكنة المهجورة ، وبدلا من ان ترى أمامك العمال والصناع ، فانك تغامر بأن تقابل قطـاع الطرق يملؤونها ويجثمون في أطلال القرى المهجورة • ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من مخلفات المنفيين ، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا ، وانتهى بعضهم الى الموقف المؤلم ، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لاطعامهم ، ولـم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدوقدي ليرما واسرته ، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين ، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال•

« واذاً فقد كان نفى الموريسكيين مـن الناحيـة الاقتصادية ، يعتبر بالنسبة الى اسبانيا ، أفدح اجراء مخرب يمكن تصوره • وانه ليمكن أن تتسامح في المبالغة التي يصفه بها سياسي أجنبـي هـو الكاردينال ريشليو • حيث يصفه بأنه «أعرق اجراء في الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق» • والحق ان الصدع الذي منيت به ثروة اسبانيا العامة من جرائه كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول : انه لم يبرأ حتى يومنا »(٤٦) • بيد ان خانير مع ذلك يقول : ان النفى كان ضرورة دينية وسياسية ، وان الوحدة الدينية ، تغدو اليوم أسطع جوهرة للامة الاسبانية •

---

(٤٦) Dr. Florecio Janer : Condicion Social de Los Moriscos de Espana (Madrid 1857). P. 100-101

ويعلق المؤرخ الاجتماعى بكاتوستى ، في الفصل الذى عقده عن « بؤس اسبانيا العام » في كتابه : « عظمة اسبانيا وانحلالها على نفى الموريسكيين ، فيقول : « كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت بأسبانيا • أجل ، لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكيين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له • ولكنهم وجدوا عقبة كأداء في معارضة الملكة ايزابيلا • وفي سنة (١٥٢٩م) ، بذل أسقف اشبيلية ، جهودا مضنية مضاعفة في هذا السبيل ، وكذا طوال حكم فيليب الثانى ، كان هذا الموضوع يثار من وقت الى آخر ، ولكن أمكن فقط في عصر فيليب الثالث المحزن ، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح •

« والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق الملك ، وعلى نصحائه وأسلافه ، تتلخص في انهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة سبل الحياة المستقرة الهادئة ، ولم يكن لهم من القوة او الكياسة او الحزم ما يمكنهم من اخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التي عاشت اسبانيا في أوقات ، كانت فيها الاحقاد في أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين •

« وقد أثار الاسراف في فرض الضرائب وبخس الاعمال ، والاضطهاد الدينى ، ومساوىء ديوان التحقيق ، هذه الارواح التى قابلت حكومة ضعيفة التدبير ، حتى أنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الاجراء الشاذ المتطرف •

« ان المؤرخين والساسة الذين دافعوا عن نفى الموريسكيين ، بعضهم للدفاع عن أخطاء هذه المدرسة ، وبعضهم لكى يشيد بالعمل الرائع ، انما يدافعون عن امور سيئة ، أو يرغبون في أن يضعوا السياسة والسلطة فوق رأس الامة ، وهم في تسويغ مثل هذا الاجراء ، لم يراعوا الا ضرورة الساعة • واذا فرضنا جدلا ضرورته للسياسة باسم السلام والسكينة العامة،

وهى التى اتخذت لتسويغ كثير من الاخطاء ، بل وكثير من الجرائم ، فأنا لا نستطيع ان ننسى أن هذا الموقف المحزن ، قد خلقته أخطاء السلطة التى واجهت تلك المشكلة القاسية ، ورأت أن تقصي الموريسكيين عن اسبانيا ، لانها شعرت بانها عاجزة عن اخماد ثوراتهم المستمرة •

« ان فقد هذه السواعد في الاعمال الزراعية ، وفي كثير من الفنون والاعمال ، والازدراء الذى كان الاسبان يضمرونه لهذه الطائفة ولنشاطها ، والسرعة التي وقعت بها هذه الخسارة ، وعدم تحوط الحكومة ، التي لم تحاول بأية وسيلة أن تعوض عن نشاطها ، وزيادة الضرائب وغيرها من المغارم ، التي اضحى عبؤها يقع فقط على عاتق الشعب الاسباني ، لكي يعوض ذلك ما خسرته الدولة مما كان يؤديه الموريسكيون : هذه ربما كانت الاسباب السريعة للبؤس العام •

« ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين ، ونحن لا نجاريهم في ذلك ، اذ يبدوا لنا العدد أمرا لا أهمية له • وسواء كان المنفيون كثرة أو قلة ، فقد كانوا هم الوحيدون الذين يعملون ، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطرابا خطيرا •

« بمثل هذه العوامل ، وصل البؤس الداخلى في المملكة الى حد لا يمكن تصوره ، ولا تمكن مقارنته ، هذا بينما كان البلاط يغرق في الحفلات الشائقة ، وينسب الى فيليب الرابع ما كان يمكن صدوره من فيليب الثانى أو كارلوس الخامس »[٤٧] •

ويرى العلامة منديث اي بلايو ، وهو من اعظم المفكرين ، والنقدة الاسبان المحدثين ، أن نفى الموريسكين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ ،

---

(٤٧) Picatosti : Estudios Gobae Ia Grandetey de Cadencia de Espana (Madrid 1887). P. 101 - 102 D. Felipe

ويشرح في كتابه عن : « الخوارج الاسبان » على النحو الآتى : « ولنقل الآن رأينا في مسألة النفى ، بكل وضوح واخلاص ، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكون به من تتبع القصة السابقة ، بروية وبلا تحيز • ولن أتردد بالجهر به ، وان كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخر ابداءه • فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الاسلامى بيننا في القرن السادس عشر ؟ من الواضح أن لا ، بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن في أى جزء من أوروبا • فكيف يستسيغ وجوده في تركيا أولئك الانسانيون الاجانب الذين يصفوننا بالبربرية لاننا قمنا باجراء النفى ؟ وانهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخلص ، مهما كان دينهم عائقا لكل تمدن ، أولئك النصارى المنافقون ، والمرتدون المارقون ، الذين لم يحسن اخضاعهم ، واولئك الاسبان الاوغاد ، الاعداد الداخليون ، خميرة كل غزو أجنبي ، الجنس الذي لايقبل الاندماج، كما اثبتت ذلك التجارب المحزنة مدى قرن ونصف • فهل يعتبر ذلك تسويغا للذين مزقوا عهود غرناطة ، أو لاولئك الثوار الذين أحزموا الهياج فيبلنسية ونصروا الموريسكيين بصورة منافية للدين ؟ كلا على الاطلاق بيد انه وقد سادت الامور منذ البداية على هذا النحو ، فانه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى ، فقد كانت الاحقاد والشكوك المتبادلة ، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين ، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة ، وفقد الامل في تحقيق التنصير بالوسائل السلمية ، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق (كذا !!) والغيرة الطيبة التي أبداها رجال مثل تلاڤيرا ، وڤيلانيڤا ، وربيرا ، واذاً فلم يك ثمة محيص من النفي • وأكرر أن فيليب الثاني قد أخطأ في كونه لم ينفذه في الوقت المناسب ، وانه لمن الحمق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء ، والمعارك ، والمذابح ، بين الاجناس ، تنتهي بصورة أخرى غير النفى أو الفناء • ذلك ان الجنس الأدنى ينهار دائماً ، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الاقوى •

« وأما أن النفي كان حدثا مقوضا ، فهذا ما لا ننكره ، فأنه من المقرر أنه في العالم يمتزج الخير والشر دائما • وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هى السبب الاساس في اقفار بلادنا من السكان ، وان كان لها أثر في ذلك • وبعد ، فان ذلك يجب ألا يعد الا كأحدى قطرات الماء في جانب نفى يهود ، واستعمار أمريكا ، والحروب الخارجية في مائة مكان معا ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهى أسباب نوه بها كلها بأيجاز اقتصاديونا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرنادث نافاريتى في نقد نفى الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة ، وما كانت ، بل وليست الاجزاء المقفرة من السكان في اسبانيا ، هى التى تركها العرب ، كما انها ليست أسوأ زراعة ، وهو ما يدل على أن الخسارة التى لحقت بالزراعة من جراء نفى كبار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الاثر ، كما قد يتبادر الى الذهن ، لو اننا وقفنا فقط عند عويل، أولئك الذين تأملوا الحقول المجدبة غداة تنفيذ أوامر النفي • ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعي توعا جسبار دى أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفى سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين، وأن الكثرة من الناس قد غنمت وغدا :

الاغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء
والصغار كبارا ، والكبار صغارا

« ذلك أن مثل هذه النظريات ، وان أملاها الاخلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست الا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسى • ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاما أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكوا اديا كيث : « يكفون وحدهم لاحداث الخصب والرخاء في سائر الارض ، لبراعتهم في الزراعة ، وقناعتهم في

الطعام » • هذا بينما يصف هذا السكرتير النصارى القدماء بقوله : « انهم قليلوا الخبرة في الزراعة » • على أنه من المحقق أنهم تعلموا ، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد ، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الرى البديعة ، التى ربما كان من الخطأ أن تنسب الى العرب وحدهم ، قد أحييت في هذه المناطق حتى يومنا • واذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر ، ولعله مبالغ فيه ، فان تأثر الصناعة كان أقل • ذلك لان للصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن ، قد أصيبت باضمحلال واضح ، وكذلك لان الصناعات الرئيسة ، اذا استثنينا الورق والحرير ، لم تكن في أيدى الموريسكيين ، وقد كانوا دائما عمالا أكثر منهم صناعا • فاذا قيل مثلا : ان المناسج التى بلغ عددها من قبل في اشبيلية ستة عشر الفا ، لم يبق منهـا في عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة ، ونسب ذلك كله الى واقعة النفى ، فان اصحاب هذا القول ينسون انه لم يكن في اشبيلية أحد من الموريسكيين ، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفى بخمسين عاما ، كأنما آثر أجدادنا أن يحققوا الثراء بالحرب في ايطاليا وبلاد الفلاندر ، وبغزو أمريكا ، وكأنهم كانوا ينظرون باحتقار سخيف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية•ان اكتشاف العالم الجديد ، والثروات التي كانت تتدفق من هناك ، فثير الجشع ، وتذكى أطماعا يسهل تحقيقها • ذلـك هو السبب الحقيقى الذى أسكت مناسجنا وأمحل زراعتنا ، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين ، ثم بعد ذلك شعبا من الاشراف المتسولين ، وانه لمن المضحك أن ننسب الى سبب واحد ، ربما كان أقل الاسباب ، ماكان نتيجة لاخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الديني •

« والخلاصة ، أنه متى تدبرنا المزايا والمضار ، فأننا ننظر الى اجراء النفي العظيـم ، بنفس الحماسة التي امتدحه بها لوبي دي ڤيجـا وثرڤانتس ، وكل اسبانيا في القرن السابع عشر ، باعتباره ظفرا لوحدة الجنس ووحدة

الدين واللغة والتقاليد • أما الاضرار المادية ، فقد شفاها الزمن ، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قاتمة ، الى مهاد خصبة وحدائق غناء • وأما الذى لا يشفى ، وأما الذى يترك دائما الاحقاد الدموية الابدية ، فهى جرائم تشبه جرائم الوندال • ولما هدأت آثار النفى ، أضحى النفى ليس فقط اجراء محمودا ، بل كذلك اجراء ضروريا • ولم يكن ميسورا أن تحل العقدة ، فكان لابد من قطعها ، مثل هذه النتائج تقترن دائما بالانقلابات المفروضة »[٤٨] •

ومن الواضح أن هذا الدفاع عن النفى ، يصدر عن تعصب أعمى ، ومع ذلك لم يستطع أن يحجب أضرار النفي على اسبانيا فيما كتب ، ولو أنه اعترف بذلك في ثنايا ردة المتهافت بصورة غير مباشرة •

ويعلق الدكتور لي ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع ، على آراء المفكرين والمؤرخين الاسبان بقوله : « اذا كان نفى الموريسكيين ، كما يقول مننديث اى بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخى ، واذا كان قد غدا ضرورة في عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقها تعصب القرن السادس عشر ، واذا كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراغون في الاراضى الاسبانية ، من الامور المأمونة ، وذلك في الوقت الذى كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطرمة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، واذا كان في وسع الملوك النصارى في هذه العصور المضطربة أن يركنوا الى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فان الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال

---

(٤٨) M. Menedezy Pelago . Historia de Los Heterdoxes Espanoles, P. 339-343

المفرق الذى يخلقه التعصب . وقد كان هذا التعصب نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة ، وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا مذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا الى طريق التعصب ، حتى دفعه توقد المزاج الاسبانى الى نهايته المحتومة باكتمال لا نظير له . ولما قضت غطرسة الكاردينال خمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين في عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الطريق الخطوة المحتومة في طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة .... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء في الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله في الظلم والاضطهاد وفظائع ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل في ظل المؤثرات الدينية ، التي غلبت على السياسة الأسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط كان يمكن العمل على ارضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية في قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيده سوءا حتى غدوا اغراء لاتصال كل عدو من الخارج ، مثارا دائما لجزع السياسة الاسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والابعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكاردينال خمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم » .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان من الميسور تداركها بسرعة ، لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمما أخرى من ان تنهض من كوارث أشد . ان انحلال اسبانيا لا يرجع فقط الى خسارتها لجزء من السكان ، بنفي اليهود والعرب المتنصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة ، ولكن الخطب يرجع الى أن اليهود والعرب المتنصرين ، كانوا من الناحية الاقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معينا لحياة الاخرين ، وبينما كانت أمم اوربا الاخرى تنهض وتسير الى الامام في مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل

شيء في سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعا الى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للاحبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد فيها كل نزعة الى الرقى العقلى ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى ، ويشل فيها كل جهد يبذل في سبيل التقدم المادى . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الجديد الى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر ، والى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم في طليعة الامم الاوروبية ازدهارا . ومهما كانت قيمة الخدمات التي أدتها ايزابيلا الكاثوليكية والكاردينال خمنيس ، فان السيء في عملهما يفوق الحسن ، لانهما علما الامة أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت في سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى »[٤٩] .

وأخيرا يجمل الدكتور لي خلاصة بحثه المستفيض في مأساة الموريسكيين في هذه العبارة الموجزة القوية : « ان تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضا خلاصة لجميع الاخطاء والاهواء التى اتحدت لتنحدر بأسبانيا في زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس الى ذلتها في عصر كارلوس الثانى »[٥٠] .

ويقول سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القحط الى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث الى كثير من الأسر النبيلة ، التي أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى ، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الاخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع

(٤٩) Dr Lea : The Moriscos; P. 395-397 and 399-401

(٥٠) Dr Lea : The Moriscos; P. V

والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالامة التى ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الاخير »[٥١] .

ويمكن تلخيص رأى النقد الاسبانى المعاصر ، بما سمعه الاستاذ محمد عبدالله عنان من الاستاذ مننديث بيدال الذى نقلنا رأيه فيما سلف ، وهو من أعظم المؤرخين والنقدة الاسبان في هذا العصر ، فقد حدثه الاستاذ عنان في مدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم ، فقال : ان لا ريب أن اسبانيا قد منيت من جراء نفى الموريسكيين بخسارة مادية ، لانها خسرت بأخراجهم شعبا مجدا عاملا بارعا في الزراعة والصناعة ، ولكن الواقع أن حركة الانقلاب البروتستانتى حملت اسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وكان من جراء ذلك أن اشتدت في معاملة الموريسكيين ، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مفرقة .

« ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة ، وكانت أيضا من آثار الرجعية الكاثوليكية . وما كان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكا ضعيفا يعوزه الذكاء والحصافة . وقد غلبت السياسة الدينية والكنيسة في هذه المسألة . ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية ، فأن العلامة ريبرا يعتقد مثلا أن الموريسكيين كان نصفهم على الاقل من الاسبان الخلص الذين اتخذوا الاسلام في عهود مختلفة ، ثم أرغموا على التنصر بعد سقوط غرناطة ، وصاروا موريسكيين » .

ويسلم الاستاذ بيدال بأن نفي الموريسكيين كان من عوامل انحلال اسبانيا ، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال : انه السبب الرئيس لهذا الانحلال، ثم يقول : « والواقع ان هذه مسألة معقدة ، واعتقد أن من أهم أسباب

---

(٥١) Scott : The Moorish Empire in Europe; V.III. P. 328

(٥٢) نهاية الاندلس (٤١٢) .

انحلال اسبانيا ، عنف السياسة الكنيسة المناهضة لحركة الاصلاح الديني ـ البروتستانتية ـ وهو عنف لم يقع مثله في أي بلد اوربي آخر ، بل انفردت به اسبانيا والكنيسة الاسبانية »[٥٢] .

ويبدى دى ماريليس الذى اتخذ مؤلف كوندى أساسا لكتابه عن « تاريخ دولة المسلمين في اسبانيا والبرتغال » حماسة في تقدير تراث الامة الاندلسية وما أصاب اسبانيا من جراء القضاء عليها ، ويعلق في خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين في تلك العبارات الشعرية المؤثرة : « وهكذا اختفى من الارض الاسبانية الى الابد ، ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير ، الذى أحيا بهمته وجده تلك الاراضى ، التى أسامتها كبرياء القوط الخاملة الى الجدب ، فبد عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها العديد من القنوات ، ذلك الشعب الذي أحاطت شجاعته الفياضة في السعود والشدائد معا ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، في مدنه صرحا خالدا من الانوار ، الذي كان ضوؤها المنبعث ينير أوروبا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذى كان روحه الشهم يطبع كل اعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه في نظر الخلف ، لونا غامضا من العظمة الخارقة ، ودهانا سحريا من البطولة ، يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فهم أنصاف الآلهة اليونان .

هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي

ا. د. خليل ابراهيم الكبيسي
كلية الاداب/جامعة بغداد

المقدمة :

حظيت الدراسات الاندلسية باهتمام كبير ومتزايد من لدن الباحثين بحيث غطت هذه الدراسات الكثير من جوانب الحياة لتاريخ العرب والمسلمين في الاندلس ، لاسيما الجانبين السياسي والحضاري ، ومع ذلك لازالت بعض الجوانب بحاجة الى توضيح او اعادة نظر ، ومن بين هذه الجوانب هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي ، هذه الهجرة التي تعددت اسبابها والتي بدأت متقطعة مع بدايات القرن الثالث الهجري واصبحت ظاهرة اجتماعية ملموسة منذ ان انفرط عقد الاندلس في عصر الطوائف واشتدت الهجمة الاسبانية عليها حيث بدأ مسلسل سقوط المدن الاندلسية • ومع استمرار حالة الانحسار استمرت الهجرة حيث كان معظم الاندلسيين يهاجرون من الاماكن والمدن الساقطة الى الاماكن الباقية في حين كان البعض يهاجرون خارج الاندلس ولاسيما الى بلدان المغرب العربي •

لقد تحكم العامل السياسي بشكل عام والديني بشكل خاص في هجرة الاندلسيين التي كانت تشتد مع ضعف الاندلس وتتوقف او تتقلص مع صموده وقوته ، فعلى سبيل المثال تقلصت الهجرة عندما هب الاخوة في المغرب العربي لنصرة الاندلسيين واشتدت مع ضعفهم ، وكذلك الحال عند قيام سلطنة غرناطة حيث تقلصت الهجرة في اوقات قوة هذه السلطنة واشتدت عندما تهاوت هذه السلطنة وسقطت غرناطة آخر معقل من معاقل العرب والمسلمين

في الاندلس ، حيث اصبحت الهجرة الى المغرب العربي شاملة وجماعية واصبحت اعداد المهاجرين بالالاف وحتى من بقي من المسلمين في اسبانيا والبرتغال بعد سقوط غرناطة وجدوا انفسهم مجبرين على الهجرة فراراً بعروبتهم ودينهم او مكرهين عليها بقرارات رسمية مدروسة ومخطط لها •

لقد كان الهدف من هذا البحث دراسة هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي فقط لاعتقادي ان هذا الموضوع لازال بحاجة الى دراسة مستقلة تبرز اسباب الهجرة وتبين مداها ، الا ان بحثاً بمثل هذا البعد لا يمكن ان يكتمل الا اذا تحدثنا عن التهجير القسري للاندلسيين رغم ان هذا البعد قد تناولته اقلام بعض الباحثين ولهذا فقد كان الحديث عنه بالخطوط العامة دون التفاصيل مع التأكيد على روايات التهجير وما ارتبط بها ، وذلك بقصد ان يكون الموضوع متكاملا ، ولهذا صار عنوان البحث : هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي •

المبحث الاول : هجرة الاندلسيين قبل سقوط غرناطة

لابد من الاشارة الى ان الهجرة ، هي حالة نزوح السكان من مدينة الى اخرى ومن بلد الى آخر ، تعددت اسبابها وتباينت نتائجها وهذا ماسنلمسه اثناء الحديث عن هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي •

ولابد من الاشارة ايضاً الى ان الاندلس كانت دار هجرة يقصدها المهاجرون للاستقرار فيها والتنعم بخيراتها ، فمنذ ان بدأت عمليات الفتح سنة ٩٢ هـ بدأت عمليات النزوح الى الاندلس والاستقرار فيها[١] ، بقصد الجهاد في بداية الامر ثم اصبحت الهجرة لغرض الاقامة فيما بعد • لقد كانت الهجرة الى الاندلس على نوعين : جماعية وفردية ، فقد ذكرت المصادر هجرة اربعمائة رجل من وجوه افريقيا مع الحر بن عبدالرحمن الثقفي الذي حكم

---

(١) ينظر بهذا الخصوص : عبدالواحد ذنون طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (بغداد ١٩٨٢) ص ٢٠١–٢٢٨ .

الاندلس من ٩٧ ـ ١٠٠هـ[٢]، كما دخلت الاندلس مجموعات من قبائل العرب برفقة السمح بن مالك الخولاني الذي تولى حكم الاندلس سنة ١٠٠هـ[٣]، الا ان المثل البارز على الدخول الجماعي الى الاندلس تمثل في الطالعة الشامية التي دخلت الاندلس سنة ١٢٤هـ مع الوالي بلج بن بشر القشيري وقدر عددها بعشرة الاف رجل[٤] .

اما الهجرة الفردية الى الاندلس فقد كانت متواصلة مع الايام ومع استقرار الاوضاع والنهوض الحضاري الذي شهدته الاندلس ولاسيما في القرون الاربعة الاولى من تاريخها ، حيث قصدها الكثير من العلماء والادباء والشعراء والمغنين والتجار وغيرهم ويكفي ان نشير في هذا المجال الى ان المقري افرد في موسوعته عن التاريخ الاندلسي الموسومة «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » باباً بدأه بذكر بعض الوافدين على الاندلس من اهل المشرق حيث قال : « اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الاعيان منهم فضلا عن غيرهم »[٥] .

والمتتبع لتاريخ الاندلس يلمس مصداقية هذا القول ولاسيما في القرون الاربعة الاولى حيث اصبحت الاندلس تستقطب المهاجرين وذلك لما كان فيها من استقرار سياسي وازدهار حضاري ولاسيما في عهد الخلافة حيث اصبحت الاندلس عامة ، وقرطبة واشبيلية وطليطلة وبلنسية وغيرها من حواضر الاندلس خاصة ، مراكز علمية تعج بالحركة والنشاط في كل ميدان من ميادين الحياة .

---

(٢) ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال ، ج٢ (بيروت ١٩٦٧) ص٥ ، المقري ، احمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : احسان عباس ، ج٣ (بيروت ١٩٦٨) ص١٤ .

(٣) طه ، عبدالواحد ذنون ، الفتح ، ٢١١ .

(٤) ابن القوطية ، ابو بكر محمد ، تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع ، (بيروت ١٩٥٧) ص ٤١ ، وينظر مثل اخر ، ص ٤٤ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/٥ .

ان حالة الاستقرار التي شهدتها الاندلس في القرون الاربعة الاولى من تاريخها لا يعني انها لم تتعرض الى بعض الفتن والاضطرابات كان من نتائجها هجرة بعض الاندلسيين من مدينة الى اخرى او هجرتهم الى خارج الاندلس ولاسيما الى اقطار المغرب العربي وهذا ما سيتضح فيما يأتي من البحث •

الا ان الهجرة من الاندلس اصبحت ظاهرة اجتماعية ملموسة بعد سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف ، اي مع ضياع هيبة الاندلس وفقدان وحدتها، فصار الخط البياني للهجرة يتصاعد مع تصاعد الاحداث والانقسامات ومع اشتداد هجمات الاعداء وبداية سقوط المدن الاندلسية •

وفي العموم يمكن ان نميز نوعين من الهجرة الاندلسية : الطوعية والقسرية • فالهجرة الطوعية تكون في الغالب من دار الاسلام الى دار الاسلام من مدينة الى اخرى او من بلد الى آخر ، ومن بين اسبابها الرحلة في طلب العلم او الرحلة لغرض اداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم او بقصد العمل والتجارة وما الى ذلك ، وبما ان قسماً من هؤلاء الراحلين يقيمون في الاماكن التي رحلوا اليها فقد اصبحوا في عداد المهاجرين • وقد أورد المقري اكثر من نموذج لمثل هؤلاء الراحلين وذلك في الباب الخامس من كتابه الذي عقده للتعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى المشرق العربي[٦] •

اما الهجرة من اجل الرباط او الجهاد في سبيل الله فهي معروفة ومنتشرة في العالم العربي الاسلامي ، ومن امثلتها بالاندلس انه في سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م رست سفينة تحمل بعض البحارة الاندلسيين في جنوب شرق فرنسا في منطقة البروفانس واستقروا في شمال مرسيليا في احدى المواقع الجبلية المنيعة وبدأوا بفتح بعض المناطق المحيطة بهم ونظراً لنجاحهم فقد توارد اليهم المؤيدون من الاندلس والمغرب العربي وقد عرفت قاعدتهم في المصادر اللاتينية

---

(٦) نفح الطيب ، ٢/٥ وما بعدها .

باسم « فراكينستوم Fraxinstum » في حين تعرف في الرواية الاسلامية بجبل القلال واستمرت دويلتهم حتى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م[٧] .

اما الهجرة القسرية فانها حدثت لاسباب كثيرة ابرزها :

١ ـ الفتن والاضطرابات : تعرضت الاندلس في حقب تاريخية مختلفة الى فتن واضطرابات انعكست اثارها السلبية على عامة الناس ، حيث كانت تدفعهم في بعض الاحيان الى الهجرة وترك اماكن سكناهم للبحث عن اماكن اخرى اكثر امناً واستقراراً ، سواء اكانت تلك الاماكن داخل الاندلس ام خارجه ، ومن الامثلة الواضحة على ذلك هيجة الربض التي وقعت في قرطبة سنة ٢٠٢هـ في عهد الامير الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل [١٨٠ـ٢٠٦هـ] الذي قضى على الهيجة بعنف وقسوة وتتبع الخارجين عليه بالقتل والتشريد ودورهم بالهدم والاحراق ، ثم امر بإخلاء الربض من اهله وامر بهدمه[٨] . ان القسوة التي عامل بها الامير الحكم اهل الربض جعلت اسمه يقترن بها حتى صار يعرف بالحكم الربضي ، كما سببت هذه القسوة هجرة اعداد كبيرة من القرطبيين المشاركين بالهيجة او ممن تعاطف معهم ، لم يقف الامر عند هذا الحد بل ان الامير امر باخراج من بقي من المشاركين في هذه الهيجة من الحاضرة قرطبة فساروا كل حسب ما امكنه متفرقين في قصي الكور واطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة اهلها الحكم انذاك[٩]

---

(٧) عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (بيروت ١٩٧٦) ص ٣١٣ ، رينو ، جوزيف ، الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي تعريب وتعليق : اسماعيل العربي (الجزائر ١٩٨٤ ص ١٥١ وما بعدها .

(٨) عن تفاصيل هيجة الربض ينظر : الكبيسي ، خليل ابراهيم ، دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالاندلس في عصري الامارة والخلافة ، رسالة دكتوراه مطبوعة على الالة الكاتبة ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص١٣٨ـ١٤٩.

(٩) ابن الابار ، ابو عبدالله محمد بن عبدالله ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، ج١ (القاهرة ١٩٦٣) ص٤٥ .

وهاجر آخرون الى المغرب العربي حيث استقروا في سواحله ، ثم انتقل غالبيتهم الى مدينة فاس ورحب بهم ادريس الثاني وطلب منهم الاقامة بها والمساهمة في تعميرها ، فاستجابوا لطلبه وصار منذ ذلك الحين يطلق على الجزء الذي سكنوه من مدينة فاس اسم « عدوة الاندلسيين » وهذا يمثل اول احتضان مغربي لمهاجرين اندلسيين ، ليس ذلك حسب بل ان قسماً من المهاجرين قدر عددهم بخمسة عشر الفاً اتجهوا الى مدينة الاسكندرية وتمكنوا من السيطرة عليها والبقاء فيها الى ان اخرجهم منها صلحاً القائد العباسي عبدالله بن طاهر ، حيث توجهوا بعد ذلك الى جزيرة اقريطش (كريت) فافتتحوها واقاموا فيها دولة عربية اسلامية استمرت ردحاً من الزمن[١٠] .

ان هجرة الاندلسيين هذه تمثل اول هجرة جماعية قسرية داخل الاندلس وخارجها .

٢ ـ سقوط المدن الاندلسية :

في نهاية القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجريين تعرضت الاندلس وعاصمتها قرطبة الى حالة مريرة من الفوضى والاضطراب اسفرت عن سقوط الخلافة الاموية بالاندلس وقيام ما يسمى بدويلات الطوائف حيث اصبحت الاندلس مقسمة الى ما يزيد على العشرين دويلة او امارة . ان ضياع وحدة الاندلس وانفراط عقدها افقدها قوتها وجعلها تسير من ضعف الى ضعف ، وقد استغل اعداء الاندلس المتربصين بها هذه الفرصة فسيطروا على اجزاء مهمة من الاراضي الاندلسية ونجحوا في سنة ٤٧٨هـ من الاستيلاء على مدينة طليطلة[١١] قاعدة الثغر الاوسط ، ان سقوط طليطلة نكبة كبيرة حلت بالامة في الاندلس وحدث دق ناقوس الخطر في الاندلس مما دفع حكاء وامراء

---

(١٠) الكبيسي ، دور الفقهاء ، ١٤٧ وما احال اليه من مصادر .

(١١) عن سقوط طليطلة ينظر : المقري . نفح الطيب ، ٣٥٢/٤ـ٣٥٤ ، محمد عبدالله عنان ، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٠٧ـ١١٦ ، الحجي ، التاريخ ، ٣٣٠ـ٣٣٢ .

الطوائف الى الاستجابة لمطالب الاندلسيين ومساعيهم الجادة للاستعانة بالاخوة في المغرب العربي ، حيث كان المرابطون في المغرب الاقصى في اوج عظمتهم وعلى اهبة الاستعداد لتلبية المطالب الاندلسية وبالفعل تعاون المرابطون مع الاندلسيين وتمكنوا من الحاق هزيمة منكرة بالاسبان في معركة الزلاقة الخالدة سنة ٤٧٩هـ[١٢] . الا ان حالة الضعف والتناحر استمرت بين امراء الطوائف مما دفع بالاندلسيين الى الاستعانة بالمرابطين مرة اخرى ولكن هذه المرة من اجل القضاء على دويلات الطوائف ، فلبى المرابطون النداء وعبروا الى الاندلس واسقطوا امراء الطوائف واصبحت الاندلس تخضع لسلطانهم ، لقد استمدت الاندلس من قوة المرابطين قوة جديدة واستعادوا اجزاء من الاراضي التي فقدوها وحافظوا على ما كان بايديهم باستثناء مدينة سرقسطة التي سقطت بيد الاعداء سنة ٥١٢هـ . واضطر غالبية اهلها الى الهجرة الى المدن والاراضي الاندلسية الباقية .

لم تستمر دولة المرابطين على ما كانت عليه من قوة واخذ الضعف يدب في كيانها بسبب اقتصادها المتواضع والضغط العسكري المتواصل والمتزايد عليها من قبل الاعداء الذين تمكنوا من الاخذ بزمام المبادرة وبدأوا بالتوسع على حساب الاراضي الاندلسية واقتطاع اجزاء مهمة منها ، الا ان الله سبحانه وتعالى هيأ للاندلس دولة فتية حلت محل المرابطين في المغرب والاندلس هي دولة الموحدين والتي نجحت في وضع حد لزحف الاعداء والحقت بهم هزيمة منكرة في معركة الارك الشهيرة سنة ٥٩١هـ[١٣] ، الا انه لم يمض زمن طويل حتى نجحت دول اسبانيا الشمالية من توحيد كلمتها والحاق هزيمة قاسية

---

(١٢) عن معركة الزلاقة ينظر : الحميري ، محمد بن عبدالمنعم ، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: احسان عباس ،(بيروت ١٩٨٤)ص٢٨٧-٢٩٢ الحجي ، التاريخ ، ٤٠٣-٤٠٩ .

(١٣) عن معركة الارك ينظر : الحميري ، الروض ، ٢٧ ، المقري ، النفح ، ٣٨١/٤-٣٨٢ ، الحجي ، التاريخ ، ٤٨٤-٤٩٠ .

بالمسلمين في معركة العقاب[١٤] سنة ٦٠٩هـ وعلى اثرها اخذ سلطان الموحدين في المغرب والاندلس يتداعى واخذ مصير الاندلس يهتز بيد القدر ، وبدأنا نسمع عن سقوط القواعد الاندلسية الكبرى تباعاً ففي سنة ٦٢٧هـ سقطت جزيرة ميورقة وفي سنة ٦٣٣هـ سقطت قرطبة عروس الاندلس وحاضرة الخلافة وفي سنة ٦٣٦هـ سقطت بلنسية كبرى مدن شرق الاندلس وفي سنة ٦٤١هـ سقطت دانية وفي سنة ٦٤٣هـ سقطت جيان وفي سنة ٦٤٤هـ سقطت شاطبة وفي سنة ٦٤٦هـ سقطت اشبيلية كبرى مدن غرب الاندلس وقاعدة الموحدين فيها ، وهكذا وفي بحر سنوات معدودة سقطت ابرز قواعد الاندلس ومدنه الكبرى وحلت بالاندلس محنة قاسية جدا[١٥] .

وبعد فمن الطبيعي ان يهاجر القسم الاكبر من سكان المدن الساقطة الى المدن التي لاتزال في قبضة المسلمين ، ويلاحظ ان قلة من سكان هذه المدن هجرتها قبل السقوط عندما شعروا ان الخطر احدق بها وهم ضعاف النفوس ممن تغلب عندهم المصلحة الخاصة على مصلحة الدين والوطن وهم ممن ينطبق عليهم قول ابن الابار : « وغاية اهلها الى هذه الغاية ان يتساقطوا على العدوة وكل منهم مفلت بجُرَيعة الذقن ومسلّم لعدوه الكافر محبوب الوطن »[١٦] في حين بقي القسم الاكبر من الاندلسيين في مدنهم يدافعون عنها حتى سقطت بيد الاعداء ، بعد ان تحملوا ماتحملوا من العذاب والحصار الذي يستمر عدة شهور وفي بعض الاحيان عدة سنوات ، قدم المدافعون خلالها الاف الشهداء وبذلوا ما يمكن بذله من جهود وطلبوا العون والمساعدة من الاخوة في الاندلس والمغرب .

---

(١٤) ينظر : الحميري ، الروض ، ٤١٦ ، الناصري ، ابو العباس احمد بن خالد ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، ج٢ (الدار البيضاء ١٩٥٥) ص٢٢٠ – ٢٢٤ .

(١٥) ينظر : ابن الابار ، الحلة ، ٢/١٢٧ ، ٣١٨ ، ٣٠٣ ، الحجي ، التاريخ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨–٤٨٠ .

(١٦) الحلة السيراء ، ٢/٢٩٢ .

وغالبا ما كانت تعقد معاهدات تسلم بموجبها المدن الى الاعداء بعد ان يعطى اهلها الامان والعهود بسلامتهم وسلامة ممتلكاتهم وممارسة عباداتهم وعاداتهم بحرية تامة ، وهذا ما حدث عند سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ وبلنسية سنة ٦٣٦هـ ومرسية سنة ٦٦٤هـ ، ومع ذلك فقد هاجرت اعداد كبيرة من الاندلسيين من المدن الساقطة وقصدت الاماكن التي لازالت في قبضة المسلمين ولاسيما الذين تتوفر لديهم الامكانات المادية او الجسدية او العلمية او المهنية او غيرها . اما من بقي من المسلمين في المدن الساقطة فقد اطلق عليهم مصطلح «المدجنون»[١٧] ووقع عليهم اللوم ولاسيما من قبل الفقهاء وذلك بسبب عدم هجرتهم الى دار الاسلام لان « الهجرة من ارض الكفر الى ارض الاسلام فريضة الى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من ارض الحرام والباطل بظلم او فتنة »[١٨] بل ان الفقيه والقاضي ابو الوليد بن رشد قال في هذا المجال : ان « فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة الى يوم القيامة ، واجب باجماع المسلمين على من اسلم بدار الحرب ان لا يقيم بها حيث تجري عليه احكام المشركين وان يهجرها يلحق بدار المسلمين حين تجري عليه احكامهم»[١٩] لقد وردت هذه الفتاوى ضمن رسالة كتبها الفقيه احمد بن يحيى الونشريسي (المتوفى عام ٩١٢هـ) اسماها « اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ومايترتب عليه من العقوبات والزواجر». ومن عنوان الرسالة يتضح عدم جواز البقاء في دار الحرب وفتوى الفقهاء بانزال العقوبات والزواجر على من بقي منهم ، الا ان هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء جماعات من المسلمين في الاراضي والمدن الساقطة وذلك لاعتبارات دنيوية

(١٧) عن المدجنين ينظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، (القاهرة ١٩٦٦) ٥٦ـ٧٠ ، الحجي ، التاريخ ، ٥٣١ـ٥٣٤ .
(١٨) الونشريسي ، احمد بن يحيى ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف الدكتور محمد حجي ، ج٢ (بيروت ١٩٨١) ١٢١ ، ١٤٠ .
(١٩) ايضا ، ١٢٤/٢ .

أو أسرية او حياتية خاصة • يضاف الى ذلك التزام الاسبان النسبي في بداية الامر بعهودهم التي قطعوها للمسلمين مما ساعد على بقاء البعض منهم في مدنهم بعد سقوطها •

كان عدد المدجنين يزداد بازدياد عدد المدن الساقطة ، الا انه لم يمض وقت طويل حتى نقضت اسبانيا عهودها ومارست الضغط على المدجنين من اجل طمس شخصيتهم العربية الاسلامية وذلك من خلال حملات التنصير القسري ومنع المدجنين من الكلام باللغة العربية او ارتداء الزي العربي وترك كل ماله علاقة بالعادات والتقاليد العربية الاسلامية ، مما دفع بعدد اخر من المدجنين على الهجرة والفرار بدينهم وكرامتهم الى الاراضي الاسلامية الباقية في الاندلس او الى خارج الاندلس ولاسيما بلدان المغرب العربي • وقد اورد ابن الايار نصاً يؤكد سياسة الضغط والتهجير للمسلمين ، فعندما تحدث عن ابي بكر يحيى بن احمد بن عيسى الخزرجي والي مدينة شاطبة ، ذكر سقوطها بيد الاعداء سنة ٦٤٤هـ ثم قال : « وفي وقتنا هذا وصل بعض الشاطبين يخبر انه اجلاهم عنها مع اهل جهاتها ــ وهم ألوف من المسلمين ــ فتفرقوا في البلاد ، واوى ابو بكر هذا في خاصته الى حصن بمقربة منها وذلك في رمضان من سنة خمس واربعين [وستمائة][٢٠] •

وفي العموم فقد صورت لنا المصادر العربية الاسلامية الحالة السيئة للاندلسيين وهم يهجرون مدنهم بعد سقوطها ، فقد رثا شاعر مجهول مدينة طليطلة بقصيدة طويلة زادت ابياتها على السبعين بيتاً جاء فيها :

واخرج اهلها منها جميعاً ... فصاروا حيث شاء بهم مصير
كفى حزناً بان الناس قالوا ... الى اين التحول والمسير[٢١]

---

(٢٠) الحلة السيراء ، ٣٠٣/٢ .
(٢١) المقري ، نفح الطيب ، ٤٨٣/٤ وما بعدها .

وعندما سقطت مدينة قرطبة خرج اهلها منها « ولم يبق من اهلهـا الا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها »[٢٢] ، وعندما سقطت بلنسية وما يليها من القواعد القريبة نزح الكثير من اهلها الى قواعد الاندلس الباقية ، وفي نفس الوقت عبر الكثير منهم البحر الى العدوة المغربية واستقروا في مختلـف انحائها ولاسيما في رباط الفتـح ، حيث التمس اهـل بلنسية وجزيرة شـقر وشاطبة وغيرهم من اهل مدن شرق الاندلس ، الخليفة الموحدي الرشيد من اجل الهجرة الى المغرب ، فاصدر الرشيد ظهيراً سنة ٦٣٧هـ يرحب بهم ويأذن لهـم فيه بالهجرة الى المغرب والنزول في رباط الفتح وقد شدد في الظهير على الولاة والعمال بحمايتهم والرفق بهم وعدم الحاق الاذى بهم او منعهم من تحقيـق مآربهم[٢٣] . ان التماس الاندلسيين بالهجرة الى المغرب يمثل حالة نادرة اذ لم يسبق ان استأذن اهل الاندلس حاكماً من حكام المغرب في ذلك ، لان الحدود في العالم الاسلامي مفتوحة وحرية الانتقال من بلد الى آخر تضمنها الشريعة ، الا ان هذا الالتماس ربما كان بسبب كثرة المهاجرين او بسبب الاضطرابـات والقلاقل التي كانت تعم المغرب العربي آنذاك لذا اراد الاندلسيون ان يضمنوا سلامتهم في المكان الذي قرروا الهجرة اليه .

وبعد سقوط بلنسية وخروج اهلها منها ارسل الكاتب ابن عميرة الـى المؤرخ ابن الابار رسالة جاء فيها :«فيا لله لاتراب درجوا، واصحاب عن الاوطان خرجوا ، قصت الاجنحة وقيل طيروا ، وانما هو القتل او الاسر او تسـيروا ، فتفرقوا ايدي سبا وانتشروا ملء الوهاد والربا »[٢٤] ومن هذه الرسالة يتضح

(٢٢) الحميري ، الروض ، ٥٨ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٤٧٢ .

(٢٣) محمد عبدالله عنان ، عصـر المرابطـين والموحدين في المغرب والاندلس ، ق٢ (القاهرة ١٩٦٤) ٤٥٥ وعن نص الظهير ينظر : ٧٣٧ ــ ٧٣٨ ، وقـد ذكر عنان انه اطلع على نص الظهير في مخطوط محفوظ بمكتبة الاسكوريال برقـم ٥١٨ عنوانه « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن علي المكنـى بابن المرابط .

(٢٤) الحميري ، الروض ، ٩٨ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ٤٩٢/٤ .

ان معظم الاندلسيين في مدنهم الساقطة صاروا بين قتيل او اسير او مهاجر ، وقد شبه ابن عميرة حالة اهل الاندلس بعد سقوط مدنهم ، بالاهل وقد اصيب احدهم بالحصبة ففروا منه على مضض خشية العاوى حين قال :

كفى حزناً انا كاهل مُحصب بكل طريق قد نفرنا ونفر[٢٥]

ان تهجير الاندلسين من مدنهم كان في بعض الاحيان شرطاً من شروط معاهدة التسليم ، فعندما اضطرت مدينة اشبيلية على الاستسلام سنة ٦٤٦هـ بعد حصار دام قرابة السنة والنصف ، كان من الشروط ان يخرج اهلها منها ، لذا قام ملك قشتالة بوضع التسهيلات للمهجرين في البر والبحر ، من ذلك انه خصص اسطولا من خمس سفن كبيرة وثمان صغيرة لهذا الغرض، وقد قدر عدد المهاجرين باربعمائة الف منهم مائة الف هاجروا بطريق البحر الى مدينة سبتة وثلاثمائة الف ساروا برا بطريق شريش وتفرقوا في مختلف الانحاء بالمغرب والاندلس[٢٦] .

وعن تهجير اهل مدينة اشبيلية يقول ابن عذاري : « وخرج منها الخاص من اهلها والعام »[٢٧] حتى ان المدينة ظلت خالية بعد ذلك ثلاثة ايام[٢٨] .

وفي العموم فان الغالبية الساحقة من سكان المدن الاندلسية الساقطة كانت تؤثر الهجرة الى ارض الاسلام ولاسيما الى المدن الاندلسية الباقية ، وعندما كانت سلطنة غرناطة قد نشأت في هذه الحقبة فقد اصبحت ملاذا وملجأً للمهاجرين الاندلسيين[٢٩] واصبح هؤلاء المهاجرين قوة عسكرية وحضارية

(٢٥) المقري ، نفح الطيب ، ٤/٤٩٤ .

(٢٦) عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ٤٨٦ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٤٨٢ .

(٢٧) ابن عذاري ، البيان الموحدي ، تحقيق : اميروسي هويسي ميراندة ومشاركة : محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن ابراهيم الكتاني ، (تطوان ١٩٦٠) ٣٨٥ .

(٢٨) الحميري ، الروض المعطار ، ٦٠ .

(٢٩) المقري ، نفح الطيب ، ٤/٥١٠ .

مضافة لهذه الدولة الفتية بما يملكون من مهارات وامكانات متعددة ، فكان ذلك احد الاسباب الرئيسة التي مكنت هذه السلطنة من الثبات في وجه الاعداء ما ينيف على القرنين والنصف من الزمن[٣٠] .

المبحث الثاني : هجرة الاندلسيين بعد سقوط غرناطة

في صفر سنة ٦٠٩هـ/١٦ تموز ١٢١٢م وقعت معركة العقاب ، التي خسر فيها المسلمون خسارة كبيرة ولهذا فقد مثلت هذه المعركة بداية النهاية بالنسبة لدولة الموحدين بل انها كما يقول ابن عبدالملك : « السبب الاقوى في تحيف الروم بلاد الاندلس حتى استولوا على معظمها وافضى الى خلائها من اهل الملة الحنيفية »[٣١]

وقد اعقب هذه المعركة حالة من الضعف الشديد نتج عنه سقوط جملة من القواعد الاندلسية المهمة مثل قرطبة وبلنسية واشبيلية وغيرهما مما اسلفناه وفي هذه الظروف الصعبة استطاع ابو عبدالله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر ، تأسيس سلطنة غرناطة والاحتفاظ بالبقية الباقية من الاراضي الاندلسية . الا ان الصراع استمر مع الاعداء وكان الاندلسيون يستميتون في الدفاع عن ارضهم ويستعينون في اوقات كثيرة بالاخوة في المغرب العربي وعلى الاخص بدولة بني مرين . وبمرور الزمن ضعفت سلطنة غرناطة بسبب الخلافات والانقسامات، في حين كانت دول اسبانيا الشمالية تتوحد وتزداد قوة وتصلها الامدادات السخية من دول اوربا فتمكنت من التوسع شيئا فشيئا على حساب سلطنة غرناطة ، وكما هي العادة فقد كان اغلبية الاندلسيين في الاماكن الساقطة يهجرون مدنهم واراضيهم او يهجرون

(٣٠) ينظر : عنان، نهاية الاندلس، ٧١ ــ ٧٢ ؛ الحجي ، التاريخ، ٥٢١ ــ ٥٢٢

(٣١) ابن عبدالملك الانصاري ، ابوعبدالله محمد بن محمد ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق : محمد بن شريفة، السفر الاول ، ق١-٢ (بيروت د. ت) ٥٦٢ (رقم الترجمة ٨٥٨) .

منها ويلجأون الى مدينة غرناطة وغيرها من المدن والاراضي الباقية بحوزة المسلمين ، في حين كانت مجموعات كبيرة منهم تعبر الى العدوة المغربية لتستقر هنالك .

لقد استمرت حالة الانحسار حتى وقعت المأساة الكبرى بسقوط مدينة غرناطة ، آخر معقل من معاقل العرب المسلمين بالاندلس بيد الملكين الكاثولكيين فرناندو وازبيلا سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وبذلك ينتهي الحكم العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال) بعد ان استمر ما ينيف على ثمانية قرون من الزمن .

اما الامة الاندلسية التي قدر عددها بالملايين(٣٢) ، فقد اصبحت بعد سقوط غرناطة في اراضي غير اسلامية ، لذا نجد مجموعات كبيرة منهم تهاجر الى المغرب العربي ، في حين بقيت اعداد ليست قليلة منهم في مدنهم وارتضوا العيش في ظل الحكم الاجنبي لنفس الاسباب التي ذكرناها سابقا عند الحديث عن المدن الاندلسية الساقطة قبل سقوط غرناطة .

لقد عملت السلطات الاسبانية على دفع الاندلسيين الى الهجرة ويتجلى ذلك بوضوح في معاهدة تسليم غرناطة التي جاء فيها : « انه يحق لسائر غرناطة والبيازين وغيرهما الذين يريدون العبور الى المغرب ان يبيعوا اموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وانه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص ، وانه يحق للسكان المذكورين ان يعبروا الى المغرب ، او يذهبوا احرارا الى أية ناحية اخرى حاملين معهم أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرها ، ويلتزم الملكان بان يجهزا في بحر ستين يوما من تاريخه عشر سفن في موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب الى المغرب ، وان يقدما خلال الاعوام الثلاثة التالية السفن لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه،

---

(٣٢) قدر عدد المسلمين في الاندلس لدى سقوط غرناطة بما لايقل عن ستة ملايين والى ثمانية ملايين اذا اضيف اليهم المدجنون في المدن التي سقطت قبل غرناطة . ينظر ، عبدالرحمن علي الحجي ، محاكم التفتيش الاسبانية وسراديب الموت فيها ، المناهل ، العدد ٣١ لسنة ١٩٨٤ (المغرب) ٤٠٢ .

ولا يقتضي منهم خلال هذه المدة اي اجر او مغرم ، وانه يحق العبور لمن شاء بعد ذلك نظير دفع مبلغ دوبل واحد عن كل شخص »[٣٣] ومما تقدم يلاحظ إن السلطات الاسبانية كانت تشجع الاندلسيين على الهجرة وان هذه السياسة كانت متبعة قبل سقوط غرناطة ، فقد كتب ملك قشتالة الى سلطان غرناطة سنة٧٩٥هـ يقول له : « قل لمن اراد الاقامة في الاندلس من المسلمين فعليه الصبر ومن اراد الجواز الى العدوة يبيع املاكه الى النصارى بالثمن الوافي فعليه الأمان والعهد »[٣٤] .

اضافة الى سياسة الترغيب التي اتبعتها السلطات الاسبانية لدفع الاندلسيين على الهجرة فانها كانت لاتتوانى في اتخاذ اي قرار يخدم مصالحها من ذلك قرارها بابعاد ابي عبدالله سلطان الاندلس الى العدوة المغربية خلافاً لشروط معاهدة التسليم ، وقد اجتمع مع السلطان خلق كثير ممن اراد الجواز، فركب ابو عبدالله ومن معه المراكب وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب ثم ارتحل الى مدينة فاس[٣٥] . وكان ذلك اواخر شهر ذي الحجة عام ٨٩٨هـ اوائل شهر تشرين اول سنة ١٤٩٣م وقد عبر البحر مع السلطان عدد كبير من الوزراء والقادة والأكابر من صحبه ممن آثروا الرحيل وبلغ جميع الذين عبروا معه الفا ومائة وثلاثين شخصا[٣٦] .

---

(٣٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٤٦ .

(٣٤) مجهول ، نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر او تسليم غرناطة ونزوح الاندلسيين الى المغرب ، تحقيق : ألفريد البستاني (العرائش ١٩٤٠) ٤٧ .

(٣٥) مجهول ، نبذة ، ٤٣ ، ٤٧ ؛ المقري ، احمد بن محمد ، ازهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا واخرين ، ج١ (القاهرة ١٩٣٩) ٦٧ الناصري ، الاستقصا ، ١٣٥/٤ ؛ الحجي ، التاريخ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ .

(٣٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٨٧ ، وقد اعتمد في ذلك على ما اورده المستشرق الاسباني لافونتي الكنترا ؛ ثم ينظر : محمد عبده حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة (عمان ١٩٧٧) ص٦٩ هامش رقم (٢) حين عقد مقارنة بين ماذكره لافونتي وماذكره صاحب كتاب نبذة العصر بخصوص الراحلين مع سلطان الاندلس .

اما فيما يتعلق بعامة الاندلسيين فان هجرتهم كانت على نوعين : الاولى ذاتية او بدافع الترغيب والترهيب ، والثانية : قسرية اعقبت قوافين التهجير التي اصدرتها السلطات الرسمية لمن بقي من الاندلسيين كما سنرى في المبحث اللاحق.

هاجر الى المغرب العربي بعد سقوط غرناطة مجموعات كبيرة من الاندلسيين، وذلك بعد ان اصبحوا في ديار يحكمها غير المسلمين وتمشيا مع قواعد الشريعة الاسلامية ومواقف الفقهاء المتشـددة والداعية الى الهجرة الى دار الاسلام ، وعلى هذا الاساس نجد العلماء والفقهاء سباقون الى الهجرة ، يقول المقري : ان « جماعة من علماء الاندلس خرجوا الى تلمسان ، منهم القاضي الشـهير ابو عبدالله بن الازرق صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل وكتاب السياسة الملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون وفيه زيادات بديعات وكتـاب روضـة الاعلام بمنزلة العربية من علوم الاسلام ، وغير ذلك ، وارتحل من تلمسان الـى المشرق ... ومنهم بنو داود المذكورين في فهرسة الشيخ ابن غازي ، وهـؤلاء خرجوا من الاندلس قبل اخذ غرناطة ، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليهـا ، وانه آخذها لا محالة ، قوضوا رحالهم عنها ، فنزلوا بتلمسـان المحروسـة ، واخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب رحمهم الله ، ومنهم الفقيـه الاديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة ابو عبدالله محمد بن الحداد الشهير بالوادي أشي ... وممن خرج بفاس من العلماء الفقيه ابو العبـاس البقيني ... »[٣٧] واحسن الحظ فقد وصلت الينا وثيقة مهمة تبين لنا علـى وجه الخصوص الذين هاجروا من مسلمي الاندلس الى المغرب العربي بعـد سقوط غرناطة ، جاء فيها : « ثم بادر المسلمون بالجواز الى العدوة من المراسي، فخرج من بقي من اهل مالقة في ثلاثة ايام الى بادس [تكتب اليوم باليـاء باديس] وخرج اهل المـرية في نصف اليوم الى تلمسان ، وخرج اهل الجزيرة الخضراء في نصف اليوم الى طنجة ، وخرج اهل رنـدة وبسطة وحصن موجر

(٣٧) ازهار الرياض ، ١/٧١ - ٧٢ .

وقرية قردوش وحصن مرتيل الى تطوان واحوازها ، واهل ترقة خرجوا الى المهدية ، وخرج اهل منسين الى بلاد الريف وخرج اهل لوشة وقرية الفخار والبعض من غرناطة واهل مرشانة واهل البشرة الى قبيلة غمارة بزاوية سيدي احمد الغزال ، وخرج اهل بريرة وبرجة وبولة واندراش الى ما بين طنجة وتطوان ثم انتقل البعض منهم الى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة ، وخرج اهل مرينية في يوم الى مدينة ازيلة [تكتب اليوم : اصيلة] وما قرب منها ، ثم خرج اهل مدينة بليش وشيطة وقرية شريش الى مدينة سلا ، وخرج ما بقي من اهل غرناطة في خمسة عشر يوما الى بجاية ووهران وبرشد زوالة ومازونة وتفطة وقابس وسفاقس وسوسة ، وخرج اهل طريفة في يوم الى اسفي وزمور وانفة ، وخرج اهل القلعة الى اجدير »[٣٨] .

ومن هذه الوثيقة يتضح ما يأتي :

١ ــ ان الهجرة غطت معظم المدن والقرى والحصون الاندلسية المهمة ، وهذا يعني ان الهجرة كانت شاملة ، لانه من الصعب احصاء جميع المهاجرين والاماكن التي هاجروا منها والاماكن التي استقروا فيها ، لسعة الارض وكثرة السكان وعدم توفر الامكانات الفنية اللازمة في ذلك الزمان .

٢ ــ ان المهاجرين الذين ذكروا في هذه الوثيقة كانوا على ما يبدو وجبة لاحقة ، لان المؤلف يستخدم عبارة « من بقي من اهل مالقة او غرناطة ... » وهذا دليل على ان العدد الاكبر من الاندلسيين كانوا قد غادروا مدنهم قبل تاريخ تسجيل الوثيقة وربما كان اثناء محاصرة مدينة غرناطة وتيقن الاندلسيين من وقوع المأساة لا محالة . وهو ما يتضح من النص الذي اورده المقري اعلاه والذي جاء فيه : « وهؤلاء خرجوا من الاندلس قبل اخذ غرناطة ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وانه آخذها لا محالة قوضّوا رحالهم عنها »[٣٩] .

---

(٣٨) مجهول ، نبذة ، ٤٨ .

(٣٩) ازهار الرياض ، ١/٧٢ .

٣ ـ من هذه الوثيقة لا تتعرف على المهاجرين الاندلسيين فقط وانما عنى الاماكن التي هاجروا اليها ويلاحظ انهم قصدوا سواحل المغرب العربي [المغرب، والجزائر ، وتونس] وهو امر طبيعي بحكم العوامل الدينية والقومية اضافة الى العوامل التاريخية والجغرافية التي تربط ابناء المغرب العربي بابناء الاندلس .

٤ ـ يبدو لي ان كاتب هذه الوثيقة كان من المطلعين على اوضاع الاندلسيين او دونها عن شخص مطلع عن كثب على احوالهم ، ولا استبعد ان يكون كاتبها احد بحارة السفن التي نقلت المهاجرين الى سواحل المغرب العربي ، وهذا ما يتضح من دقة المعلومات التي اوردها من حيث تحديد اماكن المهاجرين واتجاهات هجرتهم ، ويتضح ايضا من خلال تحديده للمدد التي استغرقتها عملية الابحار ، فهو يذكر على سبيل المثال : ان اهل مالقة استغرق ابحارهم ثلاثة ايام ، واستغرق ابحار اهل الجزيرة الخضراء الى طنجة نصف يوم ، وهو امر طبيعي اذا ما علمنا ان مايفصل بين طنجة والجزيرة الخضراء هو مضيق جبل طارق وان هذه المنطقة بالذات هي من اضيق مناطقه ، تدرك اطلاع كاتب الوثيقة ودقة معلوماته .

٥ ـ وصلت الينا هذه الوثيقة ملحقة بكتاب نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر لمؤلف مجهول ، الذي صرح انه وجد هذه الوثيقة مفيدة فالحقها بكتابه . وقد وضع لها محقق الكتاب الاستاذ الفريد البستاني العنوان الاتي « نزوح مسلمي الاندلس الى المغرب »(٤٠)

ليس ذلك وحسب بل وصلت الينا الكثير من النصوص تؤكد هجرة اعداد كبيرة من الاندلسيين الى المغرب العربي ، من ذلك هجرة بنو سراج وغيرهم من انجاد غرناطة القدماء حتى اقفرت مناطق باسرها من اعيان المسلمين ولاسيما منطقة البشرات ، وكان تدفق المهاجرين دليلا على ان الشعب المغلوب لم يكن واثقا من عدل الحكام الجدد ، وانه كان ينظر الى المستقبل بعين

(٤٠) ينظر : مجهول ، نبذة ، ٤٦ ؛ حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس ، ٧٥ .

التوجس والزيب[41] . وممن هاجر من غرناطة بعد سقوطها بقليل وبالتحديد في سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م جماعة كبيرة من اهلها على رأسهم ابو الحسن علي المنظري الذي وصفه الناصري بانه كان « رجلا شجاعا من كبار جند ابن الاحمر وكان قد ابلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن »[42] فنزل مع جماعته في موقع قرية مرتيل (او مرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذ مهجورة ، فاستأذن الاندلسيون سلطان فاس ، محمد الشيخ الوطاسي في تعميرها وسكناها ، فأذن لهم فاقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقصبة[43] . وبعد ان استقر الاندلسيون في تطوان رجع البعض بانفسهم او بعثوا الى من تخلف من اقاربهم او اصدقائهم فجاءوا بمن بقي من اهلهم[44]، ويقول الحسن الوزان وهو شاهد عيان معاصر لهذه الاحداث وهو يتحدث عن ابي الحسن المنظري : « كانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين ... وكان معه دائما ثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة اهل غرناطة ، فجعل يجوب انحاء البلاد بهذا الجيش ... »[45] وبرغم الاعداد الكبيرة التي هاجرت الى المغرب العربي او غيره من الاقطار[46] ، الا ان الباقين في غرناطة او غيرها من مدن الاندلس الذاهبة قدر بالملايين [47] .

لقد حالت الظروف الطبيعية والسياسية بين العديد من الاندلسيين والهجرة الى المغرب العربي فقد ذكر مؤلف مجهول عندما تحدث عن هجرة سلطان غرناطة ومن معه من الاندلسيين ، ان الناس في المغرب العربي اصابهم

(٤١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١١ . (٤٢) الاستقصا ، ١٢٤/٤ .
(٤٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١١ .
(٤٤) محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج١ (تطوان ١٩٥٩م) ٨٧ .
(٤٥) الوزان ، الحسن بن محمد ، وصف افريقيا ، ترجمة : محمد حجي ومحمد الاخضر ، ج١ (الرباط ١٩٨٠) ٢٤٧ .
(٤٦) ينظر : بوجندار ، ابو عبدالله محمد ، مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٣٤٥هـ) ٢٠١ ، وما بعدها ، حتاملة ، محنة مسلمي الاندلس ٧٦.
(٤٧) ينظر : الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٢ .

آنذاك «شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون ، واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر ورجع بعض الناس من الذين جاءوا الى الاندلس فاخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز ، عند ذلك عزموا على الاقامة والدجن »[٤٨] ، في حين انخدع العدد الاكبر من الاندلسيين بالشروط التي وردت في معاهدة تسليم غرناطة[٤٩] ، والتي اكدت على حرية العبادة والسكن والتملك للمسلمين ، فآثروا البقاء على الهجرة ، الا انه لم يمض وقت طويل حتى نقضت السلطات الاسبانية شروط المعاهدة واخذت تمارس شتى انواع الاضطهاد وفي هذا يقول المقري : « ولما رأى الطاغية ان الناس تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، اخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون اول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا الى ان نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وادركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم المغارم الثقيلة وقطع عنهم الاذان في الصوامع »[٥٠] ، لم يقف الامر عند هذا الحد بل « امرهم بالخروج من غرناطة الى الارياض والقرى فخرجوا صاغرين »[٥١] ، ثم اعقب ذلك باجراء ثالث وهو ان « دعاهم الى التنصر واكرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة [١٤٩٩م] فدخلوا فيه كرها »[٥٢] ، وقد اعقب قرار التنصير القسري سلسلة طويلة من الاجراءات والقوانين التعسفية الجائرة شملت غرناطة وجميع المدن التي سقطت قبلها حتى « صارت الاندلس كلها نصرانية [في الظاهر] ولم يبق من يقول فيها لا اله الا الله محمد رسول الله جهرا الا من يقولها في نفسه »[٥٣] ، وقد اطلق الاسبان على الاندلسيين الذين اجبروهم على التنصر مصطلح الموريسكيين Moriscos أي المسلمين الصغار واطلق عليهم في بعض الاحيان مصطلح العرب المتنصرين .

---

(٤٨) نبذة العصر ، ٤٤ .
(٤٩) ينظر ما ذكره المقري عن هذه الشروط ، نفح الطيب ، ٤/ ٥٢٥ ــ ٢٥٦ ؛ ثم ينظر بعض هذه الشروط ، مجهول ، نبذة العصر ، ٤١ ؛ وينظر الترجمة العربية للنص القشتالي للمعاهدة ، عنان ، نهاية الاندلس ، ٢٥٤ ــ ٢٥٠ .
(٥٠) ازهار الرياض ، ١/ ٦٨ .
(٥١) ايضا (٥٢) ايضا (٥٣) مجهول ، نبذة العصر ، ٤٤ .

ان هذين المصطلحين لا ينطبقان على وضع الاندلسيين بعد سقوط غرناطة ولا يعبران عن واقعهم الديني والتاريخي ، لان مصطلح الموريسكيين فيه اذلال واصغار للمسلمين عامة وللاندلسيين خاصة ، فضلا عما فيه من مسايرة للنظرة المتعالية للاسبان والمبنية على الحقد والكراهية لكل ما هو عربي ومسلم. اما مصطلح العرب المتنصرين، فهو الاخر لايجوز استخدامه لأن الاندلسيين لم يستبدلوا بالاسلام النصرانية وانما اكرهوا عليها وان الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ المؤمنين بالاكراه فضلا عن كونهم منصرين لا متنصرين .

كما اننا نرفض استخدام مصطلح مسلمي اسبانيا لانه يطمس مصطلحنا « الاندلس » بكل ما فيه من وقع في النفوس ، كما ان مصطلح مسلمي اسبانيا لا يفرق بين المسلمين في الاندلس قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها ، فضلا عن كون مثل هذا المصطلح يوحي ببقاء الاندلسيين على الاسلام في ظل الحكم الاسباني دونما اكراه على اظهار النصرانية وهو أمر يخالف الواقع التاريخي للاندلسيين .

وعلى هذا الاساس فاننا ندعو الى رفض هذه المصطلحات وعدم استخدامها والاستعاضة عنها بمصطلح الاندلسيين الكاتمين ، اي الكاتمون لايمانهم تيمنا بقوله تعالى : «مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه»(٥٤) لان الاندلسيين في حقيقة انفسهم ظلوا على ايمانهم واسلامهم وان اظهروا النصرانية، خوفاً على انفسهم من بطش الاسبان واضطهادهم مثلهم في ذلك مثل مؤمن آل فرعون الذي كان يسر ايمانه عن فرعون وقومه خوفاً على نفسه(٥٥).ان

---

(٥٤) سورة غافر : ٢٨ .

(٥٥) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القران ، ج٢٤ (القاهرة ١٩٥٤) ٥٧ .

هذا المصطلح ينطبق على الغالبية الساحقة من الاندلسيين وان كان هنالك قلة منهم ارتدوا عن الاسلام فهذا لايمثل الاحالة الاستثناء،الذي لايمكن ان يكون في اي حال من الاحوال معياراً للعموم •

لم يستسلم الاندلسيون للقرارات الجائرة بحقهم ولاسيما قرار التنصر القسري ودافعوا عن ايمانهم وكرامتهم وفي هذا يقول مؤرخ مجهول : « كان بعض اهل الاندلس قد امتنعوا من التنصر وارادوا ان يدافعوا عن انفسهم كاهل قرى ونجر والبشرة واندراش وبلفيق ، فجمع ملك الروم عليهم مجموعة واحاط بهم من كل مكان حتى اخذهم عنوة بعد قتال شديد ، فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم واموالهم ونصرهم واستعبدهم الا اناس في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل منيع وعر فاجتمعوا فيه بعيالهم واموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعة وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم ، فلما دنا منهم واراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه بعد اكثر من ثلاث وعشرين معركة فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان واقناد ، فلما راى انه لايقدر عليهم طلب منهم ان يعطيهم الامان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين فانعموا له بذلك الا انه لم يسرح لهم شيئاً من متاعهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا عليه»[٥٦] كما نجح الاندلسيون ايضا في التصدي للسلطات الاسبانية واعتصموا بالمنطقة الجبلية المجاورة لمدينة رندة واعلنوا الثورة ، وقد حقق الثوار نجاحاً ملموساً مما اضطر الاسبان الى ارسال حملة كبيرة تحت امرة القائد الشهير آلونسودي آجيلار دوق قرطبة ، فوقعت بين المسلمين والاسبان معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون وقتل فيها القائد الاسباني وتشتت قواته ، مما اضطر ملك اسبانيا الى اتباع سياسة اللين والمسالمة مع الثوار فاعلن العفو عنهم بشرط ان يعتنقوا النصرانية في ظرف ثلاثة اشهر او يغادروا اسبانيا

(٥٦) نبذة العصر ، ٤٥ .

تاركين املاكهم للدولة فأثر معظمهم الهجرة والجواز الى المغرب العربي ، فهاجرت منهم جموع كبيرة الى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها وقدمت الحكومة الاسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم[٥٧] . لانه ينسجم مع سياسة السلطات الاسبانية في القضاء على الانسان العربي المسلم ديناً ولغة وتراثاً .

لم يقف الاضطهاد الاسباني عند قرار التنصير القسري للانسان المسلم بل تعداه الى تراثه الفكري والعلمي ، وقد تزعم هذا الاتجاه الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، الذي لم يكتف بتحريض السلطات الاسبانية على نقض عهودها للمسلمين واكراههم على التنصر ، بل ارتكب عملاً همجياً شائناً وذلك عندما امر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية من اهالي غرناطة وارباضها ، وجمعت اكدس هائلة في ميدان باب الرملة في مدينة غرناطة ومنها الكثير من المصاحف البديعة الزخرف والالاف من كتب الآداب والعلوم واضرمت النيران فيها جميعا ، وذهب ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات الالوف من الكتب العربية ، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الاسلامي في الاندلس[٥٨] .

ثم توالى صدور القوانين والمراسيم التي كانت في مجموعها بقصد القضاء على العرب والمسلمين وكل ما يمت اليهم بصلة ، وقد تولت محاكم التحقيق السيئة الصيت ومحققها العام الكردينال خمنيس ومن جاء بعده ، مهمة تنفيذ السياسة الاسبانية الجائرة بحق الاندلسيين الكاتمين ، واتبعت في سبيل ذلك شتى اساليب الاضطهاد والتعذيب والقتل الجماعي ، وقد تم في الاونة الاخيرة اكتشاف مقبرة جماعية للاندلسيين قدرت هياكلها بما يزيد

(٥٧) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٥ .

(٥٨) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣١٦ .

على ثلاثة الآف جثة زاد التقدير بعدها الى نحو الضعف من الرجال والنساء والاطفال ، وهم ضحايا هذه المحاكم الاسبانية[٥٩] .

وفيما يأتي ملخص لابرز القوانين والمراسيم التي صدرت في اسبانيا بحق مسلمي الاندلس :

١ ــ بعد قرار التنصير الشامل الذي صدر في سنة ١٤٩٩م ، اصدر فرناندو مرسوما بالزام الاندلسيين الكاتمين في المدن ان يسكنوا في احياء خاصة بهم سميت « موريريا Moreria »[٦٠] .

٢ ــ في سنة ١٥٠١م صدر قانون يحرم على المسلمين احراز السلاح علنا او سرا وينص على معاقبة المخالفين لاول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم الموت بعد ذلك ، وفي هذا يقول المقري : « ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد »[٦١] .

٣ ــ وفي شهر شباط من سنة ١٥٠٢م اصدرت ايزابيلا مرسوما يخير الاندلسيين جميعا بين التنصير او الرحيل[٦٢] .

٤ ــ في سنة ١٥١٥م صدر مرسوم يحرم على الاندلسيين الكاتمين بيع ممتلكاتهم دون ترخيص ومن فعل ، عوقب بالموت لانهم يبيعون ممتلكاتهم ويحصلون على اثمانها ثم يعبرون الى المغرب وهنالك يفصحون عن اسلامهم[٦٣] . بينما تريدهم السلطات الاسبانية ان يهجروا بلادهم ويتركوا ممتلكاتهم ومن ثم مصادرتها .

---

(٥٩) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٣٠ ، ثم ينظر امثلة اخرى ، ٤٠٥ .
(٦٠) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٦ .
(٦١) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .
(٦٢) عادل سعيد بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة (دمشق ١٩٨٥) ١٠٠ .
(٦٣) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٢٧ .

٥ ـ وفي سنة ١٥٢٤م صدر مرسوم جديد يجبر كل مسلم على ان يختار بين التنصير او الرحيل ومن لم ينفذ ذلك فمصيره الاسترقاق مدى الحياة ، وتم بموجب هذا المرسوم تحويل جميع المساجد الى كنائس[٦٤] • ويدلل هذا المرسوم على عدم تنفيذ الاندلسيين لمرسوم التنصير الاول او لشعور الاسبان ان من أعلن نصرانيته من الاندلسيين كان في حقيقة الامر يكتم اسلامه •

٦ ـ صدر في سنة ١٥٢٦م في عهد الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) قانون جاء فيه :

أ ـ يمنع استخدام اللغة العربية كلاما او كتابة ، سرا او علانية •

ب ـ يرغم الاندلسيون الكاتمون على تعلم اللغة الاسبانية ، وتسليم كل ما بايديهم من نصوص او وثائق بالعربية •

جـ ـ يؤكد القانون وجوب اجتناب الاندلسيين نهائيا لعقائدهم وعباداتهم وثيابهم التقليدية واسمائهم العربية •

د ـ هدم كل الحمامات العامة •

هـ ـ ابقاء بيوت الاندلسيين الكاتمين مفتوحة الابواب •

و ـ يلزم الاندلسيات الكاتمات بالسفور دون خُمر في اثناء سيرهن بالطرقات[٦٥] •

٧ ـ وعندما تولى فيليب الثاني عرش اسبانيا (١٥٢٧ ـ ١٥٩٨م) صدرت في عهده قرارات ومراسيم تؤكد وتجدد القوانين السابقة ، ففي سنة ١٥٦٣م صدر قانون يؤكد من جديد تحريم حمل السلاح على الاندلسيين الكاتمين ، كما صدر في سنة ١٥٦٧م قانون يؤكد

---

(٦٤) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٦ /٤٠٧ .

(٦٥) ينظر : محمد عبدة حتاملة ، التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧ ـ ١٥٩٨ (عمان ١٩٨٢) ٣٠ .

القانون القديم الصادر في سنة ١٥٢٦م ، والقاضي بمنح الاندلسيين الكاتمين ثلاثة اعوام لتعلم اللغة القشتالية ، وكل معاملة او عقد باللغة العربية يعد باطلا ، وان تسلم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوما ، وحرم القانون على الاندلسيين الكاتمين انشاد الاغاني القومية وحرم عليهم الخضاب بالحناء ، وحرم عليهم استعمال الاسماء والالقاب العربية ، وغيرها من اوامر التحريم الجائرة والتي اريد منها جميعا تسديد الضربة القاتلة لبقايا الامة الاندلسية وذلك بتجريدها من مقوماتها القومية[٦٦] . ان هذه القوانين والمراسيم أُريد منها اضافة الى ما تقدم التمهيد لاتخاذ قرار التهجير القسري للاندلسيين الكاتمين ، وقد مثلت هذه القوانين غاية الاضطهاد والاستبداد للامة الاندلسية وفي هذا يقول المؤرخ برسكوت Prescott : « من العسير ان يعثر المرء في صفحات التاريخ على مثال اوضح للاضطهاد تعرض له شعب مقهور من ذلك المتمثل في القوانين التي صدرت في تلك الحقبة بحق الاندلسيين »[٦٧] .

ان هذه القوانين والمراسيم الجائرة جعلت الاندلسيين الكاتمين يلجأون الى الثورة بعد ان فقدوا الامل بالرجوع عن اجراءاتها الظالمة بحقهم ، فلم يمض عام واحد على قانون ١٥٦٧م وبالتحديد في سنة ١٥٦٨م ، حتى اندلع لهيب الثورة في مختلف ارجاء الاندلس ، وكانت اشدها لهيبا في منطقة البشرات الجبلية المنيعة حيث التف الاندلسيون الكاتمون حول فتى يرجع نسبه الى بني امية امراء وخلفاء الاندلس واسمه الاسباني فرناندو دي كردوبا وڤالور ، ولكنه سرعان ما افصح عن ايمانه واسلامه واتخذ اسما عربيا هو محمد بن امية صاحب الاندلس وغرناطة . كان عدد الثوار يزداد وامكاناتهم تقوى ، ودارت بينهم وبين السلطات الاسبانية سلسلة من المعارك حققوا فيها بعض الانتصارات ، حاولت السلطات الاسبانية استرضائهم باللين واصدرت امرا بالعفو عن جميع الاندلسيين الكاتمين ، الا ان الثوار لم يستجيبوا لانهم

---

(٦٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ .

(٦٧) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٤٩ .

ايقنوا ان الاسبان لا عهد لهم ولا ذمام ، وفي ٢٨ اكتوبر/تشرين اول سنة ١٥٧٠م اصدر فيليب الثاني قرارا بنفي الاندلسيين الكاتمين من سلطنة غرناطة الى داخل البلاد ومصادرة املاكهم العقارية ، ووقعت اثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية ، حيث جنح رجال الحكومة في بعض الانحاء ولاسيما في رندة الى نهب المنفيين والفتك بالنساء والاطفال ، كان مصير المنفيين مؤلما اذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض • ان الاساليب التي اتخذتها السلطات الاسبانية والمتمثلة بتجريد الحملات العسكرية المتتالية على الثوار من ناحية ، واتباع اسلوب الخديعة والغدر من ناحية ثانية ، وعدم وصول اية امدادات خارجية اليهم رغم نداءاتهم المتتالية من ناحية ثالثة ، كل ذلك وغيره من الاسباب انتهت ثورة الاندلسيين الكاتمين[٦٨] • وعادوا الى ما كانوا عليه من قهر واضطهاد ينظرون بعيون وجلة مصيرهم المؤلم ونهايتهم المحزنة ، الامر الذي يتضح بجلاء في المبحث اللاحق •

المبحث الثالث :

التهجير القسري للاندلسيين الكاتمين

بعد فشل ثورة الاندلسيين الاولى التي اندلعت في تشرين الثاني سنة ١٤٩٩م ، وصلت اعداد كبيرة من الاندلسيين الى العدوة المغربية ، وفي شهر شباط سنة ١٥٠٢م اصدرت ايزابيلا مرسومها الشهير الذي نص على ان من واجب اهل قشتالة طرد اعداء الدين المسيحي [كذا] من مملكتي قشتالة وليون وانه يتحتم على جميع الاندلسيين في المملكتين ممن لم يتعمدوا بعد ، الرحيل ، فلا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة ولا انثى عمرها يزيد على الثانية عشرة في قشتالة وليون بعد شهر نيسان من نفس السنة الا اذا تنصّروا • لقد اعطى المرسوم مهلة ثلاثة اشهر لكي يختار الاندلسيون بين التنصير او الرحيل ، وفي خلال هذه المدة قررت اعداد كبيرة من الاندلسيين الرحيل ،

---

(٦٨) للتفاصيل ينظر : عنان : نهاية الاندلس ٣٦٥ ـ ٣٧٦ ؛ حتاملة ، التهجير القسري ، ٢٧ ـ ٨٤ ؛ عبدالواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية الاسلامية في الاندلس بعد سقوط غرناطة ، (بغداد ١٩٨٨) ٤٧ وما بعدها •

فهاجر حوالي ٣٠٠ الف مسلم الى العدوة المغربية وغيرها من الاراضي الاسلامية . اما المسلمون الذين ظلوا في قشتالة وليون فقد وجدوا انفسهم منصّرين لا متنصّرين بصورة آلية بموجب هذا المرسوم[٦٩] . غير ان مسلمي الاندلس وان اجبروا على النصرانية وعلى عدم التكلم باللغة العربية او ارتداء ملابسهم التقليدية او ممارسة اي عادة من عاداتهم العربية الاسلامية ، الا انهم كانوا في الحقيقة يكتمون ايمانهم متمسكون باسلامهم وعروبتهم عدة عقود من الزمن، وهو مايتضح من التقارير التي كان يقدمها المطران ربيرا الى الملك فيليب الثالث والتي جاء فيها : ان الاندلسيين لا يتقبلون البركة ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون النبيذ ولا يعملون شيئا من الامور التي يعملها النصارى ولا يعرفون العقيدة لانهم لا يريدون معرفتها[٧٠] . لقد طارد الجنود الاسبان احد الاندلسيين في الجبال وقبضوا عليه وعذبوه لانه فضل الماء على الخمر ورفض اكل لحم الخنزير[٧١] ، ويروي لنا المؤلف الاندلسي محمد بن عبدالرفيع المتوفي سنة ١٠٥٢هـ/١٦٥٢م في كتابه الموسوم « الأنوار النبوية في آباء خير البرية » حكايته الشخصية التي تقوم دليلا على كتمان الاندلسيين لأيمانهم وتمسكهم بعروبتهم ، وملخص الحكاية : ان ابن عبد الرفيع كان في السادسة من عمره او اقل من ذلك عندما كان والده يطلعه على مبادىء الاسلام ويعلمه اللغة العربية سراً ، بالرغم من ذهابه الاجباري الى مكاتب النصارى في غرناطة ، ويطلب منه ان يكتم ما تعلمه حتى عن والدته واخيه وعمه وسائر اقاربه في حين كان يختبره سراً وعندما تأكد من اصراره وكتمانه طلب منه ان يفشي الامر لوالدته وعمه وبعض اصدقائه ممن يثق بهم ، كما تحدث ابن عبد الرفيع عن المجالس السرية للمسلمين التي كانت

---

(٦٩) للتفاصيل ينظر : بشتاوي ، الاندلسيون الموراكة ، ١٠٠ وما بعدها .
(٧٠) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٥ .
(٧١) بشتاوي ، الاندلسيون الموراكة ، ١١٧ .

تعقد في منزلهم وهم يتذاكرون الاسلام وايـام المسلمين[٧٢]. والمتتبع يلمس تمسك الاندلسيين بأيمانهم في سلسلة القرارات التي اصدرتها السـلطات الاسبانية ومظاهر الاضطهاد ولوائح الممنوعات مثل حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة وحظر الاستحمام والاغتسال وحظر طلي الايدي بالحناء وحظر ذبح الماشية على الطريقة الاسلامية وحظر التكلم بالعربية وحظر ارتداء الملابس العربية ، وعدم التواني عن اكل الميتة من الحيوانات وغيرها من غرائب المحظورات[٧٣] ، ومن يخالف هذه المحظورات يحال الى محاكم التحقيق وتنسب اليه تهمة اعتناق الاسلام في السر ، فيعرض امواله للمصادرة ويتعرض هو للسجن والتعذيب وفي كثير من الاوقات الى المـوت ، ففي سـنة ١٥٢٩م شهدت مدينة غرناطة حدثا مروعا حين احرقت اول مجموعة اندلسية من ضحايا هذه المحاكم[٧٤] ، وفي مدينة طليطلة وفي جلسة واحدة من جلسات محاكم التحقيق سيئة الصيت ، صدر الحكم بالاعدام حرقا على ١٢٠٠ مسلم[٧٥] . وعلى الرغم من كل مظاهر الاضطهاد ووسائل القهر المتمثلة بالنفي والمصادرة للاموال وحتى القتل ، فان الاندلسيين ظلوا مؤمنين بعقيدتهم متمسكين بدينهم، الامر الذي كان يرعب الاسبان ويبعث فيهم الخوف والقلق .

ومما زاد في قلق الاسبان وخوفهم تشجيع الاندلسيين للغارات البحرية وتقديمهم العون والمساعدة للمجاهدين المسلمين الذين كانوا يغيرون على السواحل الاسبانية منذ السنوات الاولى التي اعقبت سقوط غرناطة ، لقد كانت هذه الغارات تلحق خسائر فادحة بالاسبان وتبعث الخوف والاضطراب في سكان السواحل والمناطق القريبة ، الامر الذي اجبر الملك فرناندو الخامس

---

(٧٢) يوجندار ، مقدمة الفتح ، ٢٠٠ وما بعدها ؛ عنان ، نهاية الاندلس ٣٠٤، وما بعـدها .

(٧٣) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ٢١٧ .

(٧٤) ايضا ، ١١٧ .

(٧٥) الحجي ، محاكم التفتيش ، ٤٠٥ .

على ان يصدر في سنة ١٥٠٧م قرارا يقضي باخلاء الشاطىء الجنوبي من جبل طارق الى المرية لمدى فرسخين الى الداخل[٧٦] ، ومع استمرار سياسة التعسف والاضطهاد الاسبانية تواصلت هجرة الاندلسيين الى المغرب العربي، وصار هؤلاء المهاجرين يشكلون عنصرا مهما في الغارات البحرية ليس فقط بطاقاتهم العددية وانما بالمعلومات العسكرية والارشادية التي كانوا يقدمونها للمجاهدين عموما ، وذلك لان المجاهدين الاندلسيين كانوا يجدون في هذه الغارات ، الفرصة لضرب عدوهم الذي اسقط دولتهم وقتل اهلهم وصادر ممتلكاتهم وشرد من بقي منهم وحرمهم من ابسط حقوقهم ، كما كانوا يجدون في هذه الغارات البحرية فرصة لمساعدة اخوانهم الاندلسيين الباقين في اسبانيا ولاسيما في الهجرة الى دار الاسلام ، فقد نجحت احدى هذه الغارات على السواحل الاسبانية في ان تحمل معها الفين وخمسمائة اندلسي ، وفي سنة ١٥٧٠م استطاعت السفن المغيرة ان تحمل معها جميع الاندلسيين في بالميرا ، وفي سنة ١٥٨٤م سار اسطول من الجزائر الى ثغر بلنسية وحمل معه الفين وثلاثمائة ، وفي العام التالي استطاعت هذه السفن ان تحمل جميع سكان مدينة كالوسا ، وقد بلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطىء الاسبانية بين سنتي ١٥٢٨م و١٥٨٤م ثلاثا وثلاثين غارة ، عدا الغارات المحلية التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الاندلسيين المهاجرين[٧٧] .

وقد اخذ نشاط المجاهدين الاندلسيين البحري بالتصاعد مع تصاعد الضغط على الاندلسيين في اسبانيا وصار المجاهدون يسعون لاكتساب الاموال التي تساعدهم على تقوية مركزهم العسكري وتنظيم امور الجهاد في البحر بقصد مهاجمة السواحل الاسبانية ، لهذا بنى الاندلسيون في مدينة الرباط دارا لصناعة السفن وانشأوا مدرسة ملاحية للدراسة البحرية وصناعة السفن واصلاحها ومعرفة الطرق البحرية ليلا بواسطة حركة النجوم ، وقد

(٧٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٨٥ .

(٧٧) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٨٨ .

كان منهم اساتذة نبهاء مارسوا المهنة وابدوا كفاءة ومقدرة ، وتتيجة لذلك سيطر المهاجرون الاندلسيون على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ونسقوا عملهم مع مراكز الجزائر وليبيا[٧٨] ، ومع حلول عام ١٦٠٠م تعددت الغارات مما اثار القلق الدائم لدى الاسبان ، كما اثار الدهشة لدى اوربا ، حيث عجزت اسبانيا وكانت يومئذ سيدة البحار عن قمع هذه الغارات البحرية شبه الدائمة التي تقوم بها جماعات مجاهدة من المغاربة في سفنهم الصغيرة سريعة الحركة وكان اللوم يلقيه دائما في ذلك على [الاندلسيين] سكان الثغور الاسبانية فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات وبالمؤن والعون ويعينون لها مواعيد وموضع الرسو والاقلاع[٧٩] .

وبعد النفي النهائي للاندلسيين من اسبانيا عام ١٦٠٩م ، تواصلت الغارات البحرية واشتد تأثيرها مع تواصل المشاركة الاندلسية الجادة فيها ، وقد استخدم حكام المغرب الاقصى المهاجرين الاندلسيين في جيوشهم التي كانت تتصدى للمعتدين على السواحل المغربيةمن الاسبان والبرتغاليين وكذلك في الاغارة على السواحل الاسبانية ، وفي هذا يقول المقري : « ولما استخدم سلطان المغرب الاقصى منهم عسكرا جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الان وحصنوا قلعة سلا وبنوا فيها القصور والحمامات والدور »[٨٠] ليس ذلك فحسب بل ان الاندلسيين نجحوا في اقامة دولة لهم في مدينة سلا وبالرغم من صغر مساحتها وقلة عدد سكانها الا انها سجلت انتصارات عسكرية بحرية رائعة على الاسبان وسواحلهم وعلى السفن البحرية التابعة لهم ولغيرهم من الدول الاوربية[٨١] .

---

(٧٨) حسن السائح ، قصة الجالية الاندلسية في المغرب ،ق٢ ، مجلة دعوة الحق العدد (٤) السنة ١٩٨٠ ، ص٥٨ .

(٧٩) جريدة الثورة العراقية ، (نقلا عن اورنيت برس) ، دولة بورقراق ،اعلنت حربها في الاطلسي انتقاما لضياع الاندلس العدد ، ٧٢٥٧ ، في ١٩٩٠/٤/١٣ .

(٨٠) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .

(٨١) للتفاصيل ينظر : جريدة الثورة العراقية، العدد ٧٢٥٧ في ١٩٩٠/٤/١٣ .

وقد تصدى المهاجرون الاندلسيون للمعتدين البرتغاليين الذين هاجموا السواحل المغربية ، وذلك بقيادة البطل الغرناطي ابي الحسن المنظري ، الذي الحق بالبرتغاليين خسائر كبيرة في مدينة سبتة وبلاط الهبط واسر منهم ثلاثة الاف[٨٢] ، وقد تواصلت الحروب بعد ذلك بينه وبين البرتغاليين في المغرب وكان معه دائما ثلاثمائة فارس كلهم غرناطيون من نخبة اهل غرناطة[٨٣] .

ومن الجدير بالذكر ان البرتغاليين لم يكونوا اقل تعسفا واضطهادا للاندلسيين الكاتمين في البرتغال ، ففي سنة ١٤٩٥م اصدر امنويل ملك البرتغال قرارا بالتنصير القسري للمسلمين واليهود في مملكته ، كما باشر البرتغاليون العمل بمحاكم التفتيش [التحقيق] منذ سنة ١٥٣٦م ويبدو ان معظم مسلمي البرتغال رفضوا التنصر ، ومن خلال اشارة اوردها الاخباري البرتغالي دوكوش DeGois ذكر فيها ان ملك البرتغال امنويل سمح لمسلمي البرتغال الذين رفضوا التنصر بمغادرة البلاد خوفا من ان تتخذ الممالك الاسلامية موقفا مماثلا مع النصارى المقيمين بها ولكن هذا الاخباري لم يطلعنا على عدد المهاجرين ولا على البلاد التي التجأوا اليها الا انه ذكر ان الهجرة لم تشمل الجميع[٨٤] . والراجح ان معظم المهاجرين من البرتغال التجأوا الى المغرب العربي لاتصال السواحل البرتغالية بالسواحل المغربية من جهة وللعلاقات الدينية والتاريخية ووشائج الاخوة التي تربط بينهم من جهة ثانية.

وفي العموم فان ثورات الاندلسيين وما رافقها من انتصارات في بداية الامر ، وفشل سياسة التنصير الاجباري ، والغارات البحرية الناجحة على الشواطىء الاسبانية واتصال الاندلسيين بمسلمي المغرب ومصر والدولة

---

(٨٢) الناصري ، الاستقصا ، ٤/١٢٤ ـ ١٢٥ ؛ وينظر : محمد داود ، تاريخ تطوان ، ١/٩٩ .

(٨٣) الوزان ، وصف افريقيا ، ١/٢٤٧ .

(٨٤) احمد بوشرب ، الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيدة المسيحيتين ، مجلة المناهل ، العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٢ ، ص ٣٥٥ . ٣٥٦

العثمانية لانقاذهم من مأساتهم ، فقد ذكر ان اندلسيي مدينة بلنسية ارسلوا رسلهم في سنة ١٦٠٨م الى مولاي زيدان في المغرب العربي يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها وانهم على استعداد لان يقدموا له مائتي الف مقاتل[٨٥] ، اذا ما تمكن من ارسال عشرين الف مقاتل فقط بغية احتلال بلنسية[٨٦] ، ان تعهد اندلسيي بلنسية بتقديم هذا العدد من المقاتلين مبالغ فيه لان الاندلسيين نساءً ورجالا صغارا وكبارا في مملكة بلنسية يبلغ ١٣٥ الفا في احسن التقديرات[٨٧] ، الا اذا كان القصد من هذا التعهد ترغيب الاخوة في المغرب العربي على اعلان الحرب او ان اندلسيي بلنسية يعنون بذلك تقديم هذا العدد من عموم التجمعات الاندلسية في اسبانيا .

وعلى كل حال ومما تقدم يتضح اسباب قلق السلطات الاسبانية من الاندلسيين ومخاوفها من بقائهم بين ظهرانيهم ، لذا وجدت في حادثة الاستنجاد بالاخوة في المغرب العربي المناسبة لتنفيذ قرارها بتهجيرهم لتشبع بذلك رغبات دفينة تمثلت في الحقد والكراهية لكل ماهو مسلم وعربي ولاسيما من قبل الكنيسة[٨٨] ورجالها الذين كانت كلمتهم مسموعة لدى ملوك اسبانيا ، لذا فقد اقترح اكابر الاحبار على السلطة ان تقضي على الاندلسيين بالرق وان يؤخذ منهم كل عام بضعة الاف للعمل في السفن ومناجم الهند حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب البعض الاخر الى وجوب قتلهم دفعة واحدة او قتل البالغين واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ، كما اقترح بعض وزراء فيليب الثاني ان يُجمع الاندلسيون ويحملوا على السفن ثم يغرقوا في عرض

---

(٨٥) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩١ .
(٨٦) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ .
(٨٧) ينظر ، عبدالواحد ذنون ، حركة المقاومة ، ٧١ .
(٨٨) بهذا الخصوص ينظر : التواتي ، عبدالكريم ، مأساة انهيار الوجود العربي بالاندلس (الدار البيضاء ١٩٧٧) ٥٨٩ — ٦١٣ .

البحر[٨٩] . ان مثل هذه الافكار العدائية لايمكن ان تصدر الا من اناس اعمت بصيرتهم وبصائرهم الكراهية وعدموا الروح الانسانية .

وبعد اجتماعات ومناقشات دامت عدة سنوات للنظر في مصير الاندلسيين استقر الرأي على تهجيرهم . وفي التاسع من نيسان سنة ١٦٠٩م اتخذت حكومة فيليب الثالث قرارها المروع بطرد الاندلسيين[٩٠] ، ومن ابرز نصوص هذا القرار الذي بدأ بما اسماه خيانة الاندلسيين واتصالهم باعداء اسبانيا واخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم وضمان ولائهم ، وذكر القرار ان الرأي استقر على نفيهم جميعا الى المغرب العربي ، واعطى القرار مهلة ثلاثة ايام للرحيل من المدن والقرى الى الثغور يعينها لهم مأمورو الحكومة وجعل الموت عقوبة المخالفين ، وان لهم ان يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم وان السفن قد اعدت لنقلهم الى بلاد المغرب ، ومن نصوص القرار استبقاء ستة في المائة فقط من الاندلسيين للانتفاع بهم،وهؤلاء يختارهم السادة من الاسر الاكثر خبرة واشد ولاء للنصرانية ، وسمح القرار لجميع الاطفال ممن لم يتجاوز اعمارهم الرابعة بالبقاء ، كما سمح لجميع الاطفال ممن هم دون السادسة من العمر بالبقاء اذا كان ابوهم نصرانيا مع السماح لامهم اذا كانت من الاندلسيات الكاثوليكيات بالبقاء معهم ، كما سمح القرار بالبقاء لمن بقي بين النصارى مدة عامين ولم يختلطوا بالجماعة اذا زكاهم القسس ، واخيرا نص القرار على السماح لعشرة من الاندلسيين بالعودة عقب كل نقلة لكي يشرحوا لاخوانهم كيف يتم النقل الى المغرب على احسن حال[٩١] .

لم يبق امام الحكومة الاسبانية الا ان تضع هذا القرار موضع التنفيذ ، وبعد مشاورات تقرر ان يبدأ العمل به في مملكة بلنسية لانها كما قلنا ، تمثل

---

(٨٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٤ .

(٩٠) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ .

(٩١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٦ – ٣٩٧ ؛ ثم ينظر : شكيب ارسلان ، الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية ج٢ (القاهرة ١٩٩٢) ١٩٧ .

اكبر تجمع للأندلسيين في اسبانيا ولان السلطة كانت تخشى تعبئة قواهم ضدها اذا ما حدث واختارت الحكومة مجموعات اندلسية اخرى لتكون اول المنفين ، ولان السلطة كانت تعتمد في بلنسية على شخصية متنفذة حملت لواء الدعوة لنفي الاندلسيين قبل فترة طويلة من صدور مرسوم النفي ، وهي شخصية خوان دي ربيرة رئيس اساقفة مدينة بلنسية[٩٢] ، يضاف الى ذلك رفض اندلسيي بلنسية للاضطهاد واتصالهم بالاخوة في المغرب العربي وطلب المساعدة منهم في انقاذهم من مأساتهم ، وهو ماعده الاسبان خيانة لهم وذكروه في ديباجة قرار النفي العام للاندلسيين .

وفي شهر ايلول سنة ١٦٠٩م وصلت الى ميناء بلنسية السفن الاسبانية وهي تحمل حوالي ثمانية الاف جندي لتنفيذ القرار ونودي على جميع الاندلسيين في المدينة البقاء في بيوتهم لمدة ثلاثة ايام حتى تصدر اليهم اوامر اخرى[٩٣] ، وعلى الاثر اجتمع زعماء الاندلسيين وفقهاؤهم في بلنسية وقرروا انه لا امل في المقاومة وانه لا مناص من الخضوع واستقر الرأي على ان يرحلوا جميعا والا يبقى منهم احد حتى ولا نسبة الستة في المائة التي سمح ببقائها وان من بقي منهم اعتبر مرتدا مارقا[٩٤] ، ومع ذلك فقد قاوم بعض الاندلسيين القرار وتشبث بالبقاء لاعتبارات سبق ان اشرنا اليها ، الا ان الجميع في نهاية المطاف رضوا بالامر الواقع وآمنوا بأن الهجرة هي افضل من العيش في مكان لا يمكن التكهن بما سينالهم فيه وعندما حاول بعض المسؤولين اقناع اندلسيي بلنيسية بالبقاء استغل الاندلسيون هذا الامر وعرضوا الموافقة على البقاء والاستمرار بالعمل في الحقول والمزارع اذا ضمنت لهم الحكومة ممارسة عاداتهم العربية ودينهم الاسلامي دون اية مضايقات ، وعندما عرض الامر على فيليب الثالث رفضه ، فلم يبق امام الاندلسيين بعد ذلك الا الرحيل[٩٥]

(٩٢) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٥ / ١٦٦ .
(٩٣) ايضا ، ١٦٧ .
(٩٤) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٧ / ٣٩٨ .
(٩٥) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٧ .

ومما تقدم يتضح اهمية الاندلسيين في الحياة الاقتصادية لاسبانيا ، كما يتضح كتمان الاندلسيين لايمانهم وتمسكهم بعقيدتهم الاسلامية وكيانهم العربي .

اخذ الاندلسيون في بلنسية والمناطق الشرقية في بيع ما تيسر بيعه ، فبيعت المواد بابخس الاثمان ، ثم سيق الاندلسيون الى الموانىء فخرجت اول شحنة منهم على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة وقدرت بثمانية وعشرين الفا حملوا الى ثغر وهران وقد كانت يومئذ بيد الاسبان ، ثم نقلوا الى تلمسان . لقد آثر الكثير من المهاجرين السفر بأجر واضطرت الحكومة تلقاء ذلك ان تستدعي عددا كبيرا من السفن الحرة الى ميناء بلنسية ورحل بهذه الطريقة زهاء خمسة عشر الفا وقد رحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسيقى ونشيد الاغاني وهم يشكرون الله على العودة الى ارض الاباء والاجداد ، ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، اجاب بانهم كثيرا ما سعوا الى شراء قارب او سرقته للفرار به الى المغرب مستهدفين لكثير من المخاطر فكيف اذا عرضت لنا فرصة السفر الامين مجانا الم ننتهزها للعود الى ارض الاجداد[٩٦] ، ان اجابة هذا الفقيه تتماشى مع موقف الشريعة التي تلزم المسلمين بالهجرة الى دار الاسلام عندما يجد المسلم صعوبة في اداء شعائره الدينية ، وتؤكد الحقيقة التي بيناها وهي ان الاندلسيين وان اجبروا على التنصر الا انهم كانوا يكتمون ايمانهم بالاسلام . وان ما حدث في ميناء لقنت من اغتباط ليس حالة خاصة وانما هو تعبير عن الحالة العامة للاندلسيين كافة في اسبانيا لانهم وجدوا في قرار النفي الخلاص من معاناتهم وعودة صريحة الى دينهم وعروبتهم .

وبينما كانت السفن تنقل المنفيين الى الساحل المغربي وتعود لتنقل دفعة اخرى ، كانت السلطات تعد الترتيبات لنفي باقي الاندلسيين في اراغون

---

(٩٦) عنان ، نهاية الاندلس ، ٣٩٨ .

وقطالونيا ومرسية وقشتالة وغرناطة وغيرها من الاماكن • وبعد نفي الاندلسيين من اماكن تجمعهم الرئيسة انتقلت لجمع الاندلسيين من التجمعات الاقل ، تمهيدا لنفيهم ولكن العملية لم تكن سهلة اذ استمرت عدة سنوات ، في بادىء الامر تم تجميع الاندلسيين في ثمانية مراكز هي : بلنسية وارغون وقشتالة واندلوثيا ومرسية وبرغش وقطالونيا وغرناطة • من هذه المراكز شرعت السلطات المكلفة بعملية الترحيل في توزيع الاندلسيين على ثلاث عشرة نقطة تسفير في مختلف السواحل الاسبانية وهي : دانية ولقنت وقرطاجنة وجفسية وساقونية ومنقوفة وابن العروس والافاق ومالقة واشبيلية وسوميرت ورنشفالة وأيرون • وقد نقل الاندلسيون الى عدة جهات الا ان الغالبية الساحقة منهم نقلت الى بلدان المغرب العربي ، الى سبتة وتطوان وتونس وطنجة واغادير ووهران واروز وغيرها • في حين نقل بعضهم الى جزر الكناري (الجزر الخضراء) والبعض الاخر الى ايطاليا ، اما اندلسيو الشمال فقد رحلوا الى باب الشتري ومدينة برغش ومنهما الى ايرون ومن ايرون انتقل الاندلسيون على محورين : الاول الى المغرب العربي والثاني الى مدينة اورتيز الفرنسية[٩٧] • حيث سمح ملك فرنسا للاندلسيين بالاقامة في بلاده شريطة ان ينضموا الى الديانة الكاثوليكية البابوية الرومانية ، الا ان الاندلسيين رفضوا هذا الشرط فقررت السلطة الفرنسية طردهم من بلادها[٩٨] ، وقد تعرض الاندلسيون اثناء وجودهم في فرنسا الى الاضطهاد والاعتداء على ارواحهم وممتلكاتهم مما دفع بالسلطان العثماني [السلطان احمد] الى ارسال احتجاج الى الحكومة الفرنسية يطالب فيه حماية الاندلسيين من الاذى[٩٩] •

---

(٩٧) بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٦٨ ــ ١٧٠ ؛ ثم ينظر ، خليل ابراهيم السامرائي واخرين ، تاريخ المغرب العربي ، (الموصل ١٩٨٨) ٣٥٦ــ٣٥٨

(٩٨) كاردياك ، لوي ، الموريسكيون والبروتستانت ، تعريب : د. عبدالجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٧ ــ ٢٨ لسنة ١٩٨٢ ، تونس ، ص ٢٩٧ .

(٩٩) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠١ .

وقد وصلت جماعات من الاندلسيين المنفيين الى اماكن اخرى مثل القسطنطينية ومصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام[١٠٠] .

والمتتبع يلاحظ عدة امور ارتبطت بعملية نفي الاندلسيين وهي :

١ ـ خلال عملية النفي وما رافقها من قساوة شعر الاندلسيون بالمرارة لانهم تركوا اراضيهم واراضي اجدادهم التي عاشوا فيها ما يزيد على تسعة قرون من الزمن وارتبطت بها ذكرياتهم وبنوا فيها حضارتهم ومجدهم الغابر .

٢ ـ رافق الشعور بالمرارة الشعور بالخلاص ، لان الاندلسيين اصبحوا احرارا في المغرب العربي وعادوا الى الاسلام واخذوا يمارسون عباداتهم وعاداتهم دونما رقيب او عقوبات .

٣ ـ تمت عملية النفي بقساوة ووحشية وتعرض الاندلسيون المنفيون الى مهاجمة العصابات الاسبانية التي نهبتهم مرة وقتلتهم مرات اخرى ، في حين مات الكثير من المنفيين بسبب المرض او الجوع او البرد ، كما قام الجنود الاسبان ايضاً بسبي النساء والاطفال وباعوهم رقيقا[١٠١] . وقد وصفت عملية النفي عامة بانها من اكثر القصص المؤلمة في التاريخ ، بل من العسير العثور على نظيرها في احداث العصور الوسطى او الحديثة ، وانها من اشنع الافعال واكثرها بربرية في تاريخ البشرية[١٠٢] .

٤ ـ ان الغالبية الساحقة من الاندلسيين المنفيين ابعدوا الى المغرب العربي وفي هذا يقول المقري : « فخرجت الوف بفاس والوف أخر بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس»[١٠٣] ، هذا فضلا عن ان قسما غير قليل ممن هجروا الى اماكن اخرى التمسوا شتى السبل للالتحاق بالاخوة في

(١٠٠) المقري ، نفح الطيب ، ٤/ ٥٢٨ .

(١٠١) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٠ ؛ محمد عبدالله عثمان ، دستور بلد الموريسكيين ، مجلة العربي ، العدد ١٥٦ ، ص ١٣٩ .

(١٠٢) طه ، حركة المقاومة ، ٧٥ .

(١٠٣) نفح الطيب ، ٤/٥٢٨ .

المغرب العربي ، في حين وجد قسم من المنفيين ضالتهم في اماكن اخرى من دار الاسلام مثل مصر والشام والقسطنطينية •

٥ ـ ان تنفيذ قرار التهجير لم يجر دائما في يسر وسهولة ، حيث رفض بعض الاندلسيين من سكان المناطق الجبلية الانصياع لاوامر الحكومة لانعدام الثقة بها ، وفضلوا المقاومة فتصدت لهم قوات الحكومة وقتلت منهم بضعة الاف واستسلم الباقون وحملوا قسرا الى ميناء السفر ورحلوا الى شواطىء المغرب[١٠٤] •

٦ ـ استغرقت عمليات التهجير حوالى سبع سنوات فهي لم تنته حتى سنة ١٦١٥[١٠٥] ، مما يؤكد شمولية القرار لعموم الاراضي الاسبانية من جهة ، وجسامة عدد الاندلسيين المهجرين من جهة اخرى •

٧ ـ لم يمض وقت طويل على تهجير الاندلسيين حتى احس الاسبان بالخسارة بسبب الفراغ الذي تركوه في الميدان الاقتصادي عموما والزراعي منه على وجه الخصوص ، حيث انخفض الانتاج الزراعي وخربت الاراضي ، كما ادى تهجير الاندلسيين الى انخفاض عدد السكان وتضاءلت موارد الخزينة لانها خسرت الضرائب الباهظة المفروضة على الاندلسيين ، وفي العموم فان تهجيرهم حرم اسبانيا ثروات عقلية وفنية في مختلف ميادين الحياة[١٠٦] •

٨ ـ وجد الاندلسيون المهجرون في المغرب العربي العطف والترحاب ، ومد اليهم يد العون والمساعدة لاسيما في تونس حيث استقر جمهورهم وقد « اوسع لهم عثمان داي [حاكم تونس] في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا عدة اماكن ، ومن بلدانهم المشهورة سليمان

---

(١٠٤) عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٠ .

(١٠٥) بشتاوي ، الاندلسيون المراركة ، ١٧٠ .

(١٠٦) بهذا الخصوص ينظر : عنان ، نهاية الاندلس ، ٤١١ ـ ٤٣٢ ؛ بشتاوي ، الاندلسيون الموراكة ، ١٧٥ ـ ١٨٠ .

وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزاغون وطبرية وقريش ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من اعظم بلدانهم واحضرها والعالية والقلعة وغير ذلك ، بحيث تكون عدتها ازيد من عشرين بلدا ، فصارت لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من اهل البلاد»[١٠٧] وعن الترحيب يقول ابن ابي الضياف : « وفي سنة ستة عشر والف[١٠٨] قدمت وفود من الاندلس فارين بدينهم ، لما أُخذت بلادهم فاحسن عثمان داي قِراهم واكرم مثواهم وأنّس غربتهم وعظم مقدمهم وحث اهل الحاضرة على اكرامهم وآخى بينهم وبين اهل مملكته واقطعهم ما اختاروا من الارض وكان ذلك اثر الطاعون ـ فبنوا بالحاضرة حومة الاندلس وجامعها واوقفوا عليه اوقافا نافعة ، وبنوا المدرسة الاندلسية قرب سيدي يونس شيخ سيدي محرز وتمت سنة اربع وثلاثين والف ، واول مدرس بها الشيخ شعبان الاندلسي من اعيان علمائهم واوقفوا عليها الاوقاف » وبعد ان يذكر مدنهم وما غرسوا من الغروس وما مهدوا من الطرق يقول ابن ابي الضياف : « واعانهم عثمان داي على صناعة الشاشية التي كان لها سوق نافع في كثير من البلدان ، وقد كانت ضعيفة زمن الحفصيين ، وحصل للحاضرة من هذه الصناعة ثروة واسعة لان صناعتها تدير صناعات كثيرة ، وظم شيخ الاندلس في سالك اعيان المملكة»[١٠٩] وقد اكدت الوثائق والدراسات

---

(١٠٧) ابن ابي دينار ، ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني ، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام (تونس ١٩٦٧)٢٠٤

(١٠٨) يختلف المؤرخون المسلمون في تحديد السنة التي خرج فيها الاندلسيون بين سنة ١٠١٦هـ وسنة ١٠١٧هـ وسنة ١٠١٩هـ ، ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ ؛ ابن ابي دينار ، المؤنس ، ٢٠٤ ، الباجي المسعودي ، ابو عبدالله الشيخ محمد ، الخلاصة النقية في امراء افريقية (تونس ١٣٢٣هـ) ٩١ .

(١٠٩) ابن ابي الضياف ، احمد ، اتحاف الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق : لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار ، ج٢ (تونس ١٩٦٣) ٣٠ ـ ٣١ .

الحديثة صحة هذه المعلومات ، وبينت المكانة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للاندلسيين في تونس[110] .

لم يقتصر الترحيب بالاندلسيين في تونس فقط بل نجده في كل ارجاء المغرب العربي ولاسيما المناطق الساحلية حيث استقروا ومارسوا حياتهم الاعتيادية واغنوا الحياة المغربية بروافد وخبرات جديدة وتركوا بصماتهم في الميادين العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعمرانية وغيرها[111] .

٩ ـ لايوجد اتفاق بين المؤرخين حول عدد الاندلسيين المهجرين او الذين هاجروا من اسبانيا منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ هـ وحتى سنة ١٦١٥ هـ ، وقد تراوحت التقديرات التي اوردها المؤرخون الاسبان والرحالة الاجانب الذين زاروا اسبانيا بعد استكمال عمليات النفي والتهجير بين مئات الالاف وبضعة ملايين[112] . ان هذا الاختلاف الكبير في التقديرات دليل على عدم دقة الارقام وعدم توفر الاحصاءات الاكيدة والصحيحة للمهاجرين او المهجرين .

اما الرواية العربية الاسلامية ، وان كانت مقلة ، الا انها ذكرت بعض الارقام عن عدد المهجرين الاندلسيين ، فقد ذكر المقري الذي عاصر الاحداث ، ان الوفاً منهم خرجت بفاس والوف اخرى بتلمسان وجمهورهم خرج

---

(١١٠) للتفاصيل ينظر : الحلاوي ، محيي الدين بن علي ونور الدين ، وثيقة عن النزاع القائم بين احباس الاندلسيين بمجاز الباب ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٠ ـ ١١ ، السنة ١٩٧٨ ، تونس ، ص٧٩ ـ ٨٢ ؛ د. ميكالا دي ايبلترا ، وثائق جديدة حول الاندلسيين بتونس في اوائل القرن الثامن عشر ، تلخيص وتعريب : نور الدين الحلاوي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٧ ـ ١٨ السنة ١٩٨٠ ، تونس ، ص١٣٧ ـ ١٤٠ .

(١١١) عن اثر الهاجرين في المغرب العربي ينظر : السامرائي ، خليل ابراهيم وآخرين ، تاريخ المغرب العربي ، ٣٦١ ـ ٣٧٨ .

(١١٢) للتفاصيل ينظر : عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٢ ؛ بشتاوي ، الاندلسيون المواركة ، ١٧١ .

بتونس[113] ، في حين قدر محمد بن عبدالرفيع مؤلف كتاب (الانوار النبوية في آباء خير البرية) وهو من الاندلسيين الذين هاجروا الى تونس قبل عملية التهجير القسري بقليل ، عدد الاندلسيين المهجرين بما ينيف على ستمائة الف نسمة كبيرا وصغيرا[114] . وعلى هذا فان الرواية العربية الاسلامية تقدر الاندلسيين المهجرين بالالاف وليس بالملايين ، كما تقدرهم بعض الروايات الاجنبية ، وان ارقام الرواية العربية الاسلامية هي الاقرب الى الصحة بسبب معايشتها للاحداث وقياسا بالاماكن التي استوطنها الاندلسيون في المغرب العربي والمدن والقرى التي بنوها هنالك . واذا ما اضفنا الى هذه الارقام التي ذكرتها الرواية العربية عن اعداد المهجرين ، الارقام التي ذكرتها نفس الرواية عن الذين هاجروا طوعا منذ سقوط غرناطة وحتى انتهاء عمليات النفي ايام الملك فيليب الثالث فانها ولاشك سوف تتضاعف مما يؤكد ضخامة الاعداد التي هاجرت الى المغرب العربي ، وحجم المأساة التي تعرض لها الاندلسيون .

١٠ ـ واخيرا فان هجرة الاندلسيين وتهجيرهم الى المغرب العربي ، ادى الى حدوث ظاهرتين اساسيتين ، الاولى : مساهمة الاندلسيين الجادة في النهوض الحضاري الذي اصاب بلدان المغرب العربي في مختلف ميادين الحياة، لان الاندلسيين نقلوا معهم خبراتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقاموا بتوظيفها في موطنهم الجديد . والثانية : هي تنشيطهم لحركة الجهاد البحري ضد الاسبان والبرتغاليين الذين كانوا يغيرون على السواحل المغربية ويلحقون باهلها الاذى ، وقد كان لجهاد الاندلسيين وحماسهم في هذا المجال دوره الفاعل في الحد من هذه الهجمات وفي احباط الكثير منها ، فضلا عن مساهمتهم في الهجوم على السواحل الاسبانية كما بينا .

ان هاتين الظاهرتين لازالتا بحاجة الى دراسات جادة آمل ان يجد فيها الباحثون مجالا خصباً للبحث والتمحيص والله الموفق .

---

(١١٣) نفح الطيب ، ٥٢٨/٤ .
(١١٤) ينظر : بوجندار ، مقدمة الفتح ، ٢١٤ ؛ عنان ، نهاية الاندلس ، ٤٠٧ .

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **ابن الابار ، ابو عبدالله محمد بن عبدالله**
  الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣) .
- **ارسلان ، شكيب**
  الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية (القاهرة ١٩٦٤) .
- **الباجي المسعودي ، ابو عبدالله الشيخ محمد**
  الخلاصة النقية في امراء افريقية (تونس ١٣٢٣هـ)
- **بوجندار ، ابو عبدالله محمد**
  مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط ١٩٨٠)
- **بوشرب ، احمد**
  الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال وموقفها من الثقافة والعقيده المسيحيتين ، مجلة المناهل ، العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٢ (المغرب)
- **بشتاوي ، عادل سعيد**
  الاندلسيون المواركة ، دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة (دمشق ١٩٨٥) .
- **التواتي ، عبدالكريم**
  مأساة انهيار الوجود العربي بالاندلس (الدار البيضاء ١٩٧٧) .
- **جريدة الثورة العراقية (نقلا عن اورينت برس)**
  دولة بورقراق ، أعلنت حربها في الاطلسي انتقاماً لضياع الاندلس العدد ٧٢٥٧ ، في ١٣ / ٤ / ١٩٩٠.
- **حتاملة ، محمد عبدة**
  التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملك فيليب الثاني ١٥٢٧ ـ ١٥٩٨م (عمان ١٩٨٢)
- **حتاملة ، محمد عبده**
  محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة (عمان ١٩٧٧)

- **الحجي ، عبدالرحمن علي**
التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (بيروت ، دمشق ١٩٧٦)

- **الحجي ، عبدالرحمن علي**
محاكم التفتيش الاسبانية وسراديب الموت فيها ، المناهل ، العدد ٣١ لسنة ١٩٨٤ (المغرب)

- **الحميري ، محمد بن عبدالمنعم**
الروض المطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس (بيروت ١٩٨٤)

- **الحلاوي ، محيي الدين بن علي ونور الدين**
وثيقة عن النزاع القائم بين احباس الاندلسيين بمجاز الباب ، المجلة التاريخية المغربية العدد ١٠-١١ لسنة ١٩٧٨ (تونس)

- **داود ، محمد**
تاريخ تطوان (تطوان ١٩٥٩)

- **دي ايبلزا ، ميكال**
وثائق جديدة حول الاندلسيين بتونس في اوائل القرن الثامن عشر ، تلخيص وتعريب : نور الدين الحلاوي ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ١٧-١٨ لسنة ١٩٨٠ (تونس)

- **ابن ابي دينار ، ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني**
المؤنس في اخبار افريقيا وتونس ، تحقيق : محمد شمام (تونس ١٩٦٧)

- **رينو ، جوزيف**
الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي ، تعريب وتعليق : اسماعيل العربي (الجزائر ١٩٨٤)

- **السامرائي خليل ابراهيم (واخرين)**
تاريخ المغرب العربي (الموصل ١٩٨٨)

- **ابن ابي الضياف ، احمد**
اتحاف الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق : لجنة من كتابه الدولة للشؤون الثقافية والاخبار (تونس ١٩٦٣) .

- الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير
جامع البيان عن تأويل اي القرآن (القاهرة ١٩٥٤)

- طـه ، عبدالواحد ذنون
حركة المقاومة العربية الاسلامية بالاندلس بعد سقوط غرناطة (بغداد ١٩٨٨)

- طـه ، عبدالواحد ذنون
الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (بغداد ١٩٨٢)

- ابن عبدالملك الانصاري ، ابو عبدالله محمد بن محمد
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق : محمد بن شريفة السفر الاول (بيروت ، د.ت)

- ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي
البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : كولان وليفي بروفنسال (بيروت ١٩٦٧)

- ابن عذاري ، ابو عبدالله المراكشي
البيان الموحدي ، تحقيق : اميروسي هويس ميراندة ومشاركة : محمد بن تاديت الطنجي ومحمد بن ابراهيم الكتاني (تطوان ١٩٦٠)

- عنان ، محمد عبدالله
تستور بلد الموريسكيين ، مجلة العربي ، العدد ١٥٦ (الكويت)
دول الطوائف ، منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (القاهرة ١٩٦٠)
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس (القاهرة ١٩٦٤)
نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين (القاهرة ١٩٦٦)

- ابن القوطية ، ابو بكر محمد
تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق : عبدالله انيس الطباع (بيروت ١٩٥٧)

- كارديال ، لوي
الموريسكيون والبروتستانت ، تعريب : عبدالجليل التميمي ، المجلة التاريخية المغربية العدد ٢٧-٢٨ لسنة ١٩٨٢ (تونس)

- **الكبيسي ، خليل ابراهيم**

دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالاندلس في عصري الامارة والخلافة ، رسالة دكتوراه مطبوعة على الالة الكاتبة بغداد ، ١٩٨٠

- **مجهـول**

نبذة العصر في اخبار ملوك بني نصر ، او تسليم غرناطة ونزوح الاندلسيين الى المغرب ، تحقيق : الفريد البستاني (العرائش ١٩٤٠)

- **المقري ، احمد بن محمد**

ازهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا واخرين (القاهرة ١٩٣٩)

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : احسان عباس ، (بيروت ١٩٦٨)

- **الناصري ، ابو العباس احمد بن خالد**

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء ١٩٥٥)

- **الوزان ، الحسن بن محمد**

وصف افريقيا ،ترجمة : محمدحجي ومحمد الاخضر (الرباط ١٩٨٠)

- **الونشريسي ، احمد بن يحيى**

المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقيا والاندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء باشراف : محمد حجي (بيروت ١٩٨١)


المجمع العلمي
بغداد
مجلة المجمع العلمي
مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الثالث - المجلد الرابع والاربعون



مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد الرابع والاربعون

بغـــداد

١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

الفهرس

تأبين المرحوم اللواء الركن محمود شيت خطاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »
صدق الله العظيم

السيد رئيس المجمع العلمي المحترم
السادة اعضاء المجمع العلمي الافاضل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وامام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه اجمعين . الحمد لله الذي قدّر فهدى والذي احصى كل شيء عدداً ، الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا ، الحمد لله الذي يتوفى الانفس حين موتها ، الحمد لله الذي جعل المنيّة سنة الحياة ونهايتها .

حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار

الحمد لله الذي جعل نهاية كل ابن انثى وان طالت سلامته يوما على آلة الحدباء محمول

ايها الزملاء الكرام ـ رئيسا واعضاء المجمع العلمي

اننا نجتمع اليوم لا لنؤبن بكل اسى وحزن عميقين شيخا من شيوخ الفكر والادب والسيف والقلم ـ العالم الجليل والمؤمن الصادق والعسكري القائد المرحوم محمود شيت خطاب ، فحسب ، بل لنكرم ونتذكر القيم العربية والاسلامية الاصيلة والمثل العليا التي آمن بها وناضل من اجل ترسيخها وتثبيتها خلال مسيرة حياته ـ وذكر ان نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الاشقى الذي يصلي النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى .

ان المقام لا يسمح بسرد السيرة الذاتية كاملة لفقيدنا الغالي المغفور له ــ اللواء الركن محمود شيت خطاب ــ فسيرته الذاتية محمودة وتأريخ حياته حافل بالمكرمات والاعمال الجليلة من الباقيات الصالحات•فقد كان الفقيد قائدا عسكريا محنكا وعالما جليلا معروفا في الاوساط العربية والاسلامية وعلما تربويا تعلمت الاجيال من كتبه التي جاوزت الاربعين مؤلفا •

كان المرحوم محمود من المؤمنين ايمانا عميقا بالعروبة نزعة وبالاسلام عقيدة ــ فلا عروبة حقة الا بالاسلام ولا اسلام الا بالعروبة ــ فالعرب مادة الاسلام والاسلام روح العروبة فلا مادة بلا روح ولا روحا بلا مادة ــ هكذا كان ايمانه ــ

لقد كان الفقيد من المؤمنين بالاهداف الوطنية والقومية لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وعندما انحرفت الثورة عن مبادئها واهدافها ناهض العهد القاسمي الحاكم المتمثل بالشعوبية والشيوعية دفاعا عن الاتجاهات القومية للثورة ، فلقي بسبب مواقفه القومية العذاب والتعذيب والسجون والتشريد • اما علاقتنا بالمرحوم الراحل فقد توطدت وتعززت عندما اختارتنا قيادة الحزب والثورة في ١٤ رمضان المبارك لنكون اعضاء في مجلس الوزراء ولا يسعني الا ان اذكر بكل اعتزاز مواقفه الجريئة وآراءه السديدة التي كان يطرحها في مجلس الوزراء والتي كانت تلقى الاحترام من قيادة الحزب والثورة واذكر موقفه الجريء في الجلسة الاولى لمجلس الوزراء الذي طالب فيه تعديل مادة في قانون الاحوال الشخصية الذي شُرِّع في العهد القاسمي والتي كانت تنص على مساواة المرأة بالرجل في الارث وقد نجح في اتخاذ قرار بالعودة الى الاصل وكما جاء في الشريعة الاسلامية ــ وللذكر مثل حظ الانثيين ــ

كما اذكر له موقفا مشرفا في دعوته اصلاح ذات البين وقبول الرأي المعاكس عن طريق النقاش والحوار الهادىء والهادف • فلقد ضمنا انا والمرحوم

القدر في الوفد العراقي للتفاوض مع المصريين والسوريين لاحياء ميثاق الوحدة الثلاثية (١٧ نيسان) ١٩٦٣ • وقد سافر الوفد العراقي الى مصر وفي اللقاء الاول مع الوفد المصري حصل ما لا يحمد عقباه من الاتهامات والنقد والانتقاد المتبادل بين الوفدين مما دعا المرحوم محمود شيت خطاب بعد ان استاء من الجو المشحون الى تقديم اقتراح تأليف لجنة مصغرة من الوفدين العراقي والمصري لا تتعدى ثلاثة اعضاء من كل وفد لمناقشة الموضوع بهدوء وتقديم تقرير بهذا الشأن • وقد حصل اقتراحه على موافقة الطرفين لاحترام الجميع آراءه التي كانت تمثل حمامة السلام والوفاق •

اما الحدث الثالث الذي اود ان اذكره فيتمثل في اعداد المعجم العسكري الموحد للمصطلحات العسكرية ــ بناء على تكليف من جامعة الدول العربية • لقد ابى رحمه الله ورفض المكافأة المادية واعتبرها هدية للعمل العربي المشترك مما يدل على كرمه وحبه للعرب ولغة الضاد •

هذه الاعمال الجليلة وغيرها ان دلت على شيء انما تدل على علو في الحياة وسمو في الفضائل والقيم الاصيلة وسدادة في الرأي • لقد كانت اخلاقه القرآن الكريم وقدوته الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم •

كان المرحوم تقيا نقيا ، طاهر القلب ، زكي النفس ، سليم السريرة ، متواضعا يحب الناس والناس يحبونه • كان مجموعة متكاملة من القيم العربية الاصيلة شاكرا الله على السراء في غناه وقوته وكان اكثر من ذلك صابرا في عجزه وشيخوخته على فقره وبلواه •

وقبل ان انهي كلمتي المختصرة اتمنى على المجمع الموقر ان يسن سنة حميدة في تكريم اعضائه السابقين ممن بلغ السبعين وهم احياء والمنتظرين حكم القدر وعدم الاقتصار على تأبينهم بعد انتقالهم الى دار الخلود •

ايها الزمــلاء الــكرام :

لان مات المرحوم محمود شيت خطاب وفني جسمه فان روحه الطاهرة في عليين واعماله النافعة باقية ، وذريته الصالحة يدعون له بالرحمة والغفران ، رحم الله الفقيد يوم عاش ويوم مات ويوم يبعث حيا . وادخله فسيح جناته ، وعظم الله اجر اهله وذويه واقاربه ومحبيه والهمهم الصبر « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » .

صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ا.د. مسارع حسن الراوي
عضو المجمع
١٩٩٨/١٢/٢٢



مجلة المجمع العلمي

الجزء الاول ـ المجلد السادس والاربعون

بغـــداد

١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م

الفهــرس

الموضـوع	الصفحة

كلمات موجزة عن مقالة (نهاية النهاية : توجّس السياسة الأسبانية وعصر الغارات البحرية الاسلامية)

هذه المقالة تمثل آخر مقالة كتبها اللواء الركن محمود شــيت خطاب رحمه اللّه تعالى في (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد 44 – الجزء الثالث – 1418هـ - 1997م -ص 72 – 131.

وأضفت لها – اتماماً للفائدة- مقالة الأستاذ الدكتور (خليل ابراهيم الكبيســي) رحمه اللّه تعالى الموســومة : (هجرة الأندلســيين وتهجيرهم الى المغرب العربي) ص 132- 171 ، لتشابه الموضوع.

ثم أضــفت تأبين اللواء محمود شــيت خطاب ، المنشــور في (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد 46 – الجزء الأول – 1419هــــ - 1999م ص 235 – 238.

وسمحتُ لنفسي أن أضيف صورة للغلاف من تصميمي ، وليست من أصــل المقالة ، مع إنها مأخوذة منها فأبقيتها كما هي مع اضــافة لوحة لتهجير المورسيكيين ـ فاقتضى التنويه.

واللّه من وراء القصد

حرره المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

بغداد في 16-ذو القعدة-1443هـ - 15-06-2022م